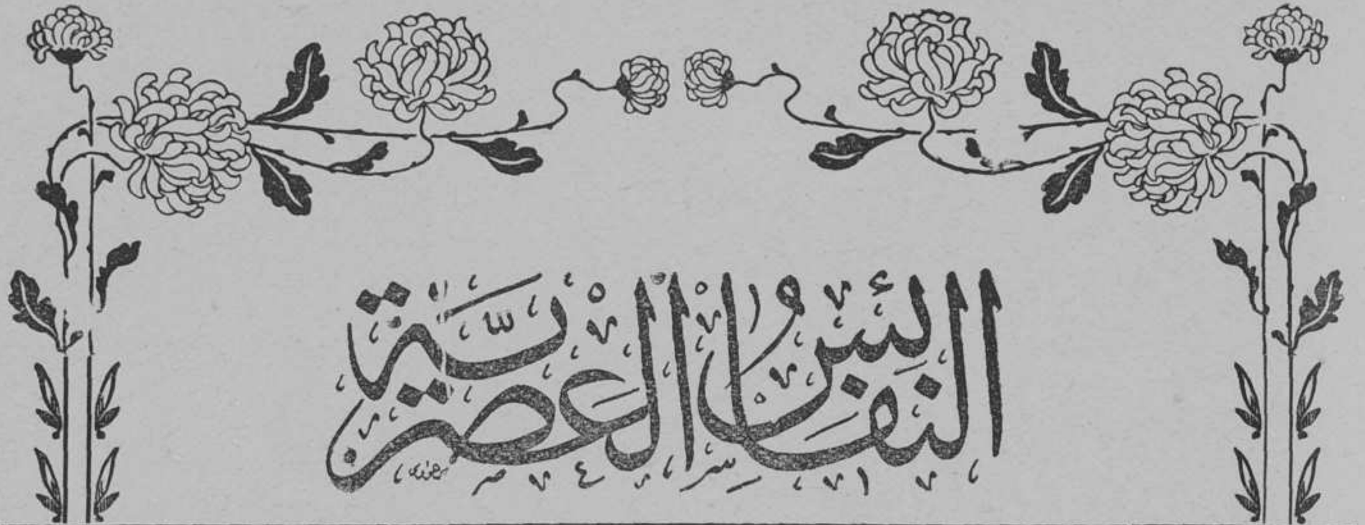


الجزء الرابع | نيسان سنة ١٩١٤ | السنة السادسة

البانيا

باتت هذه البلاد دهرًا طويلاً مطمح ابصار الفاتحين . ولبثت تهدّد دعائم السلم في اوروبا الى ان كانت الحرب البلقانية وكان من نتيجتها استقلال البانيا وصيرورتها مملكة واتفاق اوروبا على تعيين البرنس وليم اوف ويد اميرًا عليها . فرأينا بهذه المناسبة ان نكتب هذا الفصل نبيّن فيه جغرافية هذه البلاد وخلاصة وصف احوالها فنقول :

البانيا وتعرف ايضًا ببلاد الارناؤوط واقعة في شبه جزيرة البلقان ، يحدُّها الجبل الاسود شمالاً وبلاد اليونان جنوباً وبلاد السرب شرقاً ، ولها ساحل طويل يمتدُّ على البحر الادرياتيكي الفاصل بينها وبين ايطاليا

وهي بلاد خصبة جميلة طيبة الاقليم . تمتدُّ في شمالها سلسلة جبال شرطاغ وهي اعلى جبال البلقان . ومن شرطاغ تمتدُّ الى الجنوب والى الشرق سلاسل جبال اخرى ذاهبة في كل جهة من البانيا الشرقية ومنها يخرج

نهر مورافا ويجري الى الشمال ونهر فاردار ويجري الى الجنوب الشرقي ويصبُّ في خليج سالونيك

وفي البانيا الجنوبية تقلُّ الجبال وتكثر البرك والبحيرات، واشهرها بحيرة اوخريدا ومساحتها نحو مئة ميل مربع وهي لا تنحطُّ بجمالها عن بحيرة جنيف . وقد اشتهرت اوخريدا بنقاء مياهها حتى انك تبصر السمك فيها على عمق نحو ١٠ باعات تحت سطح الماء . وعلى الشاطئ الشمالي الشرقي من هذه البحيرة قائمة مدينة اوخريدا وهي مدينة حصينة واقعة على سفح جبل مخروطي الشكل عليه قلعة منيعة من بناء البلغاريين يوم كانت مقام ملوكهم في القرن الثامن . وعدد سكانها الان نحو ثمانية آلاف

والى الشرق من اوخريدا بحيرة بريزبي وبحيرة دريبوفو وهما تتصلان ببحيرة اوخريدا بمجارٍ واخاديد تحت الارض

والحد الفاصل بين البانيا الجنوبية والبانيا الشمالية نهر صغير يُقال له ديفول . وهنا تمتدُّ سلسلة جبال بيندس والى الجنوب منها واقعة بحيرة يانينا ومساحتها ٢٤ ميلاً مربعًا، ومدينة يانينا احدى امهات مدن البانيا وحصونها المنيعة . وقد استولى اليونان في الحرب البلقانية على يانينا والقسم الجنوبي من البانيا الجنوبية وهو المعروف بالابيروس واصبح جنوبي الابيروس لليونان وشماليه لالبانيا

وعلى السفح الشمالي من جبال شرطاغ واقعة مدينة برزرين وهي من المدن الحصينة الجميلة بحسن موقعها . اشتهرت بمصنوعاتها الفضية وعمل الاسلحة والجلود وفيها ٢٥ مأذنة . وعدد سكانها زهاء ٤٠ الفاً اكثرهم سرب والبان وفلاخ . وهي الان في حوزة السرب استولوا

عليها وعلى اوخريدا وغيرهما من مدن البانيا الشرقية في اثناء الحرب المقدم ذكرها

ومن برزرين تمتدُّ طريق الى مدينة اشقودره غرباً. واشقودره مدينة جميلة واقعة على الطرف الجنوبي من بحيرة اشقودره ونهر درين ٬ بينها وبين بحر الادرياتيك مسافة اربعين كيلومترًا ٬ وهي عاصمة البلاد الالبانية ٬ واشهر معاقلها المنيعة. عدد سكانها زهاء ٣٦ الفًا اكثرهم من الالبان الماليسور واهم صادراتهم الصوف والحرير والجلود والشمع والخشب. وتتصل اشقودره بالبحر الادرياتيكي بنهر بويانا الذي يسير في سهل اشقودره وفيه تجري مياه البحيرة الى البحر. والنهر المذكور صالح لنقل السفن التجارية ذهاباً واياباً. اما بحيرة اشقودره فتبلغ مساحتها نحو ١٥٣ ميلاً مربعاً

ومن المدن المشهورة في البانيا دوراتسو او دراج وكانت تعرف بدراكيون في ايام الرومان وهي اليوم اشهر مدن البانيا الوسطى واشهر مرافئ البانيا عموماً. وفيها نحو اربعين كنيسة شيَّد اكثرها البنادقة في عهد استيلائهم عليها. وقد دخلتها النصرانية سنة ٥٨. وفي سنة ٤٤٩ اصبحت اسقفية ومركز الدين المسيحي في تلك الجهات. واهم صادراتها الان الخشب

وتقسم البانيا الى مقاطعات صغيرة اكثرها وعرة المسالك شامخة الجبال يتعذر على السائح الدخول اليها لما في ذلك من الاخطار. وليس في البلاد خطوط حديدية. وطرق العربات فيها قليلة وعلى مسافات قصيرة

ووسائل الرزق الاساسية في البلاد هي الزراعة وتربية المواشي.

ومن صادراتها الحنطة والشعير والذرة والسماق والزيت والزيتون والصوف والجلود والعلَق والسلاحف . ومعظم تجارتها مع النمسا وايطاليا

***

يُقسم الالبان باعتبار اصلهم الى قسمين كبيرين وهما الغيج في الشمال والتوسك في الجنوب . ولكل منهما لهجات وعادات مختصة به . ولغتهم في الجملة مزيج من بقايا لغة الفلاسجيين القدماء واللغات السلافية واليونانية والايطالية . وبينهم كثيرون من السلاف والفلاخ واليونان امتزجوا بهم من عهد بعيد . وقد دُعيت مدن واماكن كثيرة من البانيا باسماء سلافية محضة . وبعض الالبان وخصوصاً الميريديت من قبائل البانيا الشمالية ينتسبون الى البلغار . ومما لا ريب فيه ان اسكندر بك بطل البانيا الشهير هو سلافي

ويُقسم كلٌّ من الغيج والتوسك الى اسباط وقبائل قلما يبطل النزاع والخصام بينها . ولكل عشيرة منهم زعيم تخضع له . وابناء العشيرة الواحدة يعيشون سوية كأسرة واحدة لا يتنازعون فيما بينهم ولكنهم يهبون كرجل واحد في وجه العدو الذي يطأ ارضهم . وفي كل قبيلة يؤلف الزعماء مجلساً وكل زعيم منهم يترأس اجتماعات قبيلته . ومجلسهم بمثابة مجلس تشريع . وهم يمثلون زعيم العشيرة او شيخها بهيئة خروف كبير يسير في مقدمة القطيع وعليه الاجراس الصغيرة

واشتهر الالبانيون منذ القدَم بشدة البطش والميل الى الغزو وسفك الدماء وهم دائماً مدججون بالاسلحة من الطبنجة والخنجر والبندقية وهي لا تكاد تفارقهم لحظة عين حتى في الكنائس والمعابد . وهم يكرمون

البطل وأشجعهم افضلهم

والاخذ بالثار شائع عندهم شيوعاً كبيراً . واذا قتل رجل واحداً من قبيلته او من قبيلة اخرى والتجأ حالاً الى منزل اقرب قريب للقتيل وشرح له واقعة الحال وجب على هذا القريب حماية الجاني ما دام تحت سقف بيته.وعليه ايضاً ان يوصله بسلام الى حدود اراضي القبيلة ولكنه يقول له عندما يفترق عنه ان حمايته له قد انتهت الان فيحق من بعد ذلك لاقارب المقتول قتل الهارب في اي مكان وجدوه حتى ولو بعد مضي سنين . ولا ينجو ابنه او حفيده بل يؤخذ منهم بثار مَن قُتل . واذا قتل رجل آخر من قبيلة مجاورة لقبيلته فلا يفتش اقارب القتيل واصحابه عن القاتل نفسه بل يقتلون حالاً اي شخص يلقونه من اسرته او قبيلته . وقد يحدث ان القاتل لا يهرب مع علمه انه سوف يُقتل لكي لا يقع حيف على اقربائه . ويُقال بالاجمال ان نصف موتى الالبان يموتون قتلاً

ومن عاداتهم الشائعة المؤاخاة . وهي ان يؤاخي بعضهم بعضاً للاخذ بثار عام او لاتفاق خاص . وطريقة هذه المؤاخاة ان المتعاقدين بعد ان يقسموا الايمان المغلظة يجرح كلٌّ منهم يده ويمتصّ الواحد من دم الآخر بعض قطرات

ولما كان الرجال في البانيا منصرفين في الغالب الى الخصومات والقتال انحازت ادارة البيوت عندهم الى النساء . فهنّ المدبّرات في المنازل والعاملات في الحقول والكروم والبائعات في الاسواق حتى ورد في امثالهم ان المرأة تشبه (مكّوك الحائك) لانها في حركة دائمة .

ولكنها في اوقات الخطر الداهم تتقلد السلاح وتسير الى ساحات القتال كالرجل

والمرأة الالبانية تخضع لزوجها خضوعاً تاماً وتخضع لكل كبير في الاسرة او العشيرة من الرجال . وفي حال الزواج يدفع العريس للعروس مهرًا موهوماً . ولا تزال عادة خطف العرائس جارية عندهم بل هي كنظام

والمرأة الخائنة عندهم تُرجم بالحجارة . وراجمها في الغالب ادنى اقربائها اليها . وعشيقها يُقتل ويُقدم رأسه الى زوجها

والالبان يحترمون نساءهم كثيراً . وقتل المرأة لغير جريرة الخيانة الزوجية يُعدُّ عندهم خيانة لا تغتفر وعارًا على القبيلة يلزم ازالته بكل الوسائل . حتى ان المرأة اذا وقفت الى جانب زوجها فلا يمكن لاحد ان يطلق عليه بندقيته خوفاً من ان يصيبها بسوء ولا يجسر احد ان يؤذي امرأة ولو كانت منفردة في اوعر الاماكن . واذا اراد سائح غريب ان يسيح في بلاد البانيا فلا يأمن على نفسه الخطر الا اذا اتخذ دليلةً له من الالبانيات

والتعليم في البانيا سقيم جدًا . ولا اثر للحضارة فيها . واكثر الالبان اميّون لا يزالون في حالة الجهل والبداوة . ولغتهم لم تُهذَّب بعد ولا دُوّنت وهم يحاولون كتابتها بالحروف اللاتينية ومنهم من يكتبها بالحروف اليونانية . وفي سنة ١٨٨٢ طُبع عندهم اول كتاب صرفي للغة الالبانية (التوسكية) واول ترجمة للكتاب المقدس . وهم لا يميلون الى الزراعة والتجارة وركوب البحر وصيد الاسماك

ومن امثالهم، وقد جمع هذه الأمثال احد الأساتذة في رسالة قدمها الى البرنس وليم ونشرتها جريدة الاهرام، ما ننقله هنا :

الكذب المزخرف خير من الصدق العاطل

خير اصدقائك كيس ملآن دقيقاً وآخر ملآن مالاً

خلق الله الكلب والهر يتهارشان فاذا رأيتهما صديقين فانج بنفسك على عجل

من لم يرَ الارنب تركض لا يجوز له ان يشرح الخوف

من ربط حماراً على عربته وجب عليه ان يتحمل نهيقه

مَن لا يسكر يوم الاحد لا يحيا يوم الاثنين

لا يخلو من الهم الا رأس القرع

والالبان في الغالب طويلو القامات ممتلئو الابدان ذوو هيبة وجلال وفيهم ميل الى السرور والاعجاب بالنفس . اما لباسهم الوطني فهو السراويلات البيض الضيقة المزيَّنة بالنقوش الجميلة يعلوها قميص ابيض فوقه سترة صغيرة سوداء بنصف اكمام ويلفُّون سوقهم بالطماقات الملوَّنة ويكسون رؤوسهم بالطربوش الاحمر الطويل يثنونه الى الوراء . ومنهم من يلقون قماشاً طويلاً ابيض او ملوَّناً على رؤوسهم ويلفونه حول اعناقهم . ويتمنطقون حول اوساطهم بمناطق عريضة يحمل كلٌّ منهم فيها ذخيرته من الرصاص ويغرس اسلحته كالطبنجة والخنجر

***

ولم تكن البانيا دولة مستقلة بنفسها من اول عهدها بالتاريخ . فقد استولى عليها المكدونيون ثم الرومان (سنة ١٦٧ قبل المسيح) ثم الغوث

فالسرب فالبنادقة ثم العثمانيون . وفي عهد سيادة الدولة العثمانية عليهم حاولوا ان يستقلوا بقيادة بطلهم المشهور جورج كستريوتا المعروف باسكندر بك فنجحوا ولكنهم بعد وفاته (سنة ١٤٦٧) عادوا فاضطرُّوا الى الخضوع والاذعان . ثم قاموا وحاولوا الاستقلال ثانيةً بقيادة بطلهم علي باشا تبه دلنلي ففازوا به في اوائل القرن التاسع عشر وامتدَّت مملكتهم وقتئذٍ من الجبل الاسود الى تسَّاليا في بلاد اليونان ودامت زهاء ثلاثين سنة ولكنها انقضت بقتل علي باشا المذكور سنة ١٨٢٢

ولبث الالبان منذ ذلك الحين يغتنمون كل فرصة لاعلان استقلالهم الى ان كانت الحرب البلقانية الاخيرة بين الدولة العثمانية وحكومات البلقان المتحدة ضدها . فاعلن الالبان استقلالهم وساعدتهم اوروبا في ذلك فارتدَّ عنهم السرب واليونان وجنود الجبل الاسود بعد ان كادوا يجتاحون بلادهم كلها

ويُقدَّر عدد سكان مملكة البانيا الان بمليون نفس اكثرهم مسلمون ويليهم الارثوذكس ثم الكاثوليك . ويُقدَّر عدد الالبان في غير البانيا بنحو نصف مليون منهم ٢٥٠ الفاً في بلاد اليونان ومئة الف في جزيرة سيسيليا وايطاليا والباقون متشتتون في بلاد السرب والدولة العثمانية

قال رجل للحسن — ان لي بنية فمن ترى ان أُزوجها ؟ قال — زوجها ممن يتقي الله ، فان أَحبها اكرمها ، وان أَبغضها لم يظلمها

يومُ الجمعةِ العظيم

في

كنيسة السيدة (نوتردام)

مذ زرتُ كنيستكِ الكبرى ناديتُ تباركَ من أسرى
وعقدتُ يميني باليُسرى ولثمتُ الصورةَ والأُخرى
مذ زرتُ كنيستكِ الكبرى

ومسحتُ الجبهةَ بالمقدسْ فشعرتُ ببسمكِ الانفَسْ
قد قبّلَ قلبي فاستأنس بالحبِ فرحتُ ولم اياس
مذ زرتُ كنيستكِ الكبرى

وسمعتُ الواعظَ في المِنبَر يسترعي اسماع المحضَرْ
وينادي اعذرَ مَن انذر فسجدتُ لهيكلكِ الاكبر
مذ زرتُ كنيستكِ الكبرى

ولاجلكِ قد صمتُ الجمعه ونذرتُ التوبةَ بالسرعه
وهجرتُ الراحةَ والهجعه وألفتُ الطاعةَ والركعه
مذ زرتُ كنيستكِ الكبرى

واطلتُ بذكركِ تعليلي ورفعتُ بشكركِ ترتيلي
وجعلتُ لوجهكِ تهليلي واضأتُ لحمدكِ قنديلي
مذ زرتُ كنيستكِ الكبرى

يا عرشَ اللطف ومعناهُ وملاكاً ارسلهُ اللهُ

ورسولاً تسحر عيناه وبشيراً اسمع نجواه
مذ زرتُ كنيستكِ الكبرى

آمنتُ بحسنِ اعلاكِ وبما اوحتهُ عيناكِ
وجعلتُ فؤادي مغناكِ لم اعبد يوماً إلاّكِ
مذ زرتُ كنيستكِ الكبرى

باريس في ٢١ اذار سنة ١٩١٣ — قسطاكي الحمصي

ماذا فعلت الجهالة

الجهالة ولدت الطمع فصحبها فكانا مصدر المصائب التي أفسدت الارض ونزعت منها الخيرات

الجهالة والطمع سوّلا للانسان الاماني الفارغة وبلوغ السعادة بخرج عن نواميس الطبيعة الرابطة بينه وبين سائر الموجودات بخزق حرمة ادبه الذاتي

بالجهالة والطمع ضرب الانسان حجاباً بين قلبه والرحمة وبين عقله والانصاف ، فظلم وجار وألقى الاحزان بين اخوته وبذلك خرق حرمة الادب الجمهوري

بالجهالة والطمع قام الرجل على الرجل والبيت على البيت والعشيرة على العشيرة فصار وجه الارض مشهداً للفظائع بسفك الدماء والمصادرات والسلب والنهب والعسف

بالجهالة والطمع تحرّكت في بواطن الدول والممالك حرب كامنة يثيرها اقلُّ سبب فانقسمت المملكة على نفسها وأصبحت بين ظالم ومظلوم وغالب ومغلوب وسيد وعبد

بالجهالة والطمع قام الرؤساء تارةً بالجرأة والقوة واستلوا من وسط الامة سيوفاً يذبحونها بها فأنشأ الحرص بينهم حكم الاستبداد السياسي . وتارةً بالمكر والدهاء فأنزلوا من السماء ما شاءوا من القوات وساعدتهم السذاجة فأنشأوا حكم الاستبداد الديني

بالجهالة والطمع فسد في الناس معنى الخير والشر والعدل والظلم والفضيلة والرذيلة فالجهالة والطمع اذن هما ينبوع الارواح الشريرة التي أفسدت الارض وقلبت الممالك

تاجر البندقيَّة

﴿ رواية ﴾

لشكسبير أشهر شعراء الانكليز روايات تمثيلية عديدة تُرجمت الى اهمّ اللغات لما حوته من دقة الوصف وسامي التخيّلات والمعاني. وقد نالت اللغة العربية حظاً وافراً من تلك الروايات التي عرّب أفضلها فريق من كتابنا وشعرائنا العصريين المضطلعين بآداب اللغات الاجنبية المنتشرة في بلادنا. وقد وقفتُ موءخراً لهذا الشاعر الكبير على روايات قصصية جُمعت في كتاب مدرسي انكليزي اسمه (حكايات شكسبير) فاخترتُ منه الحكاية اللطيفة الاتية وعربتها لقرّاء «النفائس العصرية» بتصرُّف قليل لا يشوّه أصلها بل يزيدها رونقاً وطلاوة

البندقية مدينة ايطالية واقعة على بحر الادرياتيك واسمها بالافرنجية ڤينيس (Venise)

وكان في هذه المدينة الجميلة رجلٌ يهودي كثير المال والاملاك يُدعى شيلك يدين دراهمه الى التجار المسيحيين بربىً وافر فيربحمنهم الاموال الطائلة. فأبغضه الناس لهذه المعاملة الجائرة. وكان اشدهم كرهاً له تاجر مسيحي اسمهُ انطونيو وهو من كبار تجار ايطاليا ومن افضل رجالها سيرة وأحسنهم سريرة. ومن مآثره انه كان يدين امواله للناس بدون فائدة فأحبهُ مواطنوه وكرههُ اليهودي وحدث بينهما عداوة تجارية هائلة وبات كلٌّ منهما يتوقع الفرص السانحة ليبطش بالآخر. وكان لانطونيو صديق حميم يدعى بسانيو انفق اموالهُ الكثيرة في ايام صباه بين اللهو والملذّات. واعتاد ان يأتي الى انطونيو في وقت الحاجة والعوز فيساعده هذا بكل رخيص وغالٍ دون ان يردّه خائباً. وفي احد الايام جاء بسانيو كعادته الى صديقه انطونيو وقال له — انني أحببتُ فتاةً جميلة غنية مات والدها منذ عدة اشهر وخلف لها

ميراثاً عظيماً ٠ وقد تعرفتُ بها وأحببتها وأحبتني وطلبتُ يدها فما رفضت ٠ فاذا تزوجتها أصبحتُ في يسرٍ بعد عسري الشديد ٠ وبما انك تعلم حالتي المادية فارغب اليك يا عزيزي انطونيو ان تعيرني ثلاثة الاف فرنك وهي آخر مرة اطلب منك مالاً ٠ ومتى أسعدني الحظ واقترنت بالفتاة وفيتك جميع ما لك عندي

فأسف انطونيو لعدم وجود دراهم كافية في صندوقه ليحقق رغائب صديقه ٠ ومما زاد اسفه وقلقه هو ان مراكبه الحاملة اليه انواع البضائع لم تصل الى الميناء في ميعادها المعين ٠ ولذلك رأى من الضرورة ان يذهب الى شيلك اليهودي و يستدين منه المبلغ الذي طلبه منه صديقه

وفي صبيحة اليوم الثاني كنت ترى انطونيو وصديقه بسانيو منطلقين معاً الى منزل شيلك ٠ ولما دخلا عليه تقدم انطونيو وسأله ان يدينه ثلاثة الاف فرنك بالفائدة التي يريدها ووعده ان القيمة يردّها اليه حال وصول البضائع التي تقلها مراكبه القادمة على الطريق

وكان شيلك جالساً وراء مكتبه يسمع الحديث ولا يجيب بكلمة ولكنه قال في نفسه لقد حان لي ان انتقم من هذا العدوّ اللدود الذي يكرهني و يدين امواله للناس بدون فائدة انتقاماً مني

فأوجس انطونيو خيفةً من سكوت شيلك وقال له بصوت مرتفع — لماذا لا تجيبني يا مسيو شيلك ؟ قل لي كلمة واحدة لأعلم هل تقرضني المبلغ ام لا ؟

فاجاب اليهودي وامائر الانتقام بادية على وجهه — لقد قاسيت منك يا انطونيو ما لا يستطيع احد احتماله ٠ فقد استهزأت بي مراراً عديدة امام الناس وكنت أتحمل منك ذلك بتساهل وحلم وصبر ٠ فكم مرة دعوتني بالكلب النجس ؟ وكم مرة وقفت حجر عثرة في طريقي ؟ وكم مرة بصقت في وجهي لانني أدين مالي بالفائدة ؟ وعليه فهل تلومني اذا امتنعتُ عن تلبية طلبك ؟

فقال انطونيو — انت حرٌّ في مالك ولك الخيار في تسليمه لمن تشاء متى تشاء ، ولكنك كن على ثقة ان مالك يكون محفوظاً معي كما لو كان في صندوقك الخاص ،

واذا – لا أذن الله – تأخرتُ عن دفعه في الاجل المعين فلك من الحكومة خير معين

فابتسم شيلك عندئذٍ ابتسامة الظافر وقال بهدوء وسكينة – خفف روعك يا انطونيو فانا صديقك على رغم جميع اعمالك ، واني اعتبرك واحبك من صميم قلبي ، وها قد صفحتُ الان عن جميع ما بدر منك سابقاً وسأُعطيك ما تحتاجه بدون فائدة

فعجب انطونيو من حديث شيلك وانقلابه الفجائي من الخصومة الى الصداقة ولم يعلم لذلك سبباً

وقبل ان يعطيه شيلك المبلغ قال له – انني سأُسلمك اياه بدون فائدة كما قلتُ لك الان ، ولكن عليك شرط واحد اريده منك وهو ان تذهب معي الى منزل جاري الحاخام ليكون وسيطاً بيني وبينك وشاهداً عليك ، حتى اذا لم تدفع المال في اليوم المعين اعاقبك بقطع رطل لحم من جسمك في دار الحكم على مشهد من الناس

فاجاب انطونيو – انني بكل سرور اصادق على هذا الطلب

فصاح صديقه بسانيو – ان هذا الشرط لا يوافق ففيه خطر على حياتك

فعارضه انطونيو وقال له – كن مطمئناً يا اخي فان مراكبي ستصل قريباً الى الثغر وهي تحمل اليّ بضاعة كثيرة ومالاً وافراً

وهكذا وقّع انطونيو على الكمبيالة بحضرة الحاخام على رغم ارادة بسانيو . ثم قبضا المبلغ وانصرفا

اما الوارثة الغنية التي يريد بسانيو الاقتران بها فاسمها بورشيا وكانت تسكن في بلدة قريبة من البندقية تدعى بلمونت وقد أَحبت بسانيو لا لكثرة ماله او فرط جماله بل لصفات كريمة واخلاق شريفة تحلى بها

وفي مساء ذلك اليوم غادر بسانيو مدينة البندقية وجاء الى بلمونت حاملاً الى خطيبته عدّة هدايا ثمينة . فاستقبلته بورشيا استقبالاً حسناً وأَجلسته بقربها وقالت له بابتسام وانعطاف – بالامس كنت انا ربة هذا البيت وسيدة اولئك العبيد . اما اليوم فانا وعبيدي لك يا عزيزي بسانيو

ثم نزعت من يدها خاتماً ذهبياً وقالت – وهذا الخاتم اجعله ميثاقاً بيني وبينك

فطفح قلب بسانيو سروراً وأُعجب باخلاق بورشيا وعزّة نفسها وصدق إخلاصها ومحبتها ٠ ولما تناول منها الخاتم ووضعه في اصبعه قالت له — احرس عليه ايها العزيز ٠ واياك ان تخرجه من يدك

فوعدها انه سيحافظ عليه محافظته على نفسه ٠ وهكذا صرفا ايام العرس بالغبطة والراحة

و بينما هما ذات يوم غارقان في احاديث الحب والصفاء دخل عليهما رسول يحمل الى بسانيو رسالة من قبل صديقه انطونيو ٠ وما كاد يفض غلافها و يأتي على آخرها حتى امتقع لونه ووهت عزائمه ٠ فحارت بورشيا من امر عريسها وتبدُّل حاله وسألته بالحاحٍ عن سبب حزنه ٠ فأخبرها مفصلاً كيف حصل على مبلغ من المال بواسطة صديقه انطونيو ، وما هو الشرط الذي كتبه عليه شيلك اليهودي اذا لم يفِ الدين في اليوم المضروب ٠ وحينئذٍ تناول رسالة انطونيو وقرأها على مسمع من عروسته وهذا نصها :

عزيزي بسانيو ! بأسف شديد أُخبرك بالمصيبة الجسيمة التي أَلمت بي ٠ فقد بلغني اليوم ان مراكبي قد غرقت جميعها قبل ان تصل الى المينا ٠ ولم يبق لي حيلة اتوصل بها الى دفع المال الى شيلك ٠ ولذلك فسأُضطرُّ ان اقوم بما تعهدتُ له به امام الحاخام ٠ لان الكمبيالة تستحق بعد يوم ٠ فرجائي منك ان توافيني الى منزلي حال وصول رسالتي اليك ٠ فحقق املي وعجل في المجيء لاني ارغب في مشاهدتك قبل مماتي ٠ والسلام عليك وعلى عروستك الجديدة من صديقك انطونيو

فلما فهمت بورشيا مضمون الرسالة قالت لعريسها — اترك يا عزيزي كل شيء وخذ معك مالاً يزيد على الدين عشرين مرة ولا تدع صديقك المخلص يُصاب بسببك بأقل اذية

فودَّع بسانيو عروسته الحسناء وتوجه الى مدينة البندقية وعندما وصلها عرف ان انطونيو رهين السجن ٠ فذهب حالاً الى منزل اليهودي وعرض عليه اضعاف الدين فلم يقبل واصرَّ على قطع رطل لحم من جسم انطونيو كما جاء في الوثيقة

وعينت الحكومة يوماً خاصاً لفصل الخطاب في هذه الحادثة الهائلة الفريدة في بابها بحضور حاكم المدينة والمحكمة والمحامين وقسم كبير من الشعب

واغتمت بورشيا لفراق زوجها فارسلت سراً خادماً لها الى البندقية ليعلمها ماذا جرى لانطونيو ٠ فعاد حالاً وانبأها انه في السجن وحياته في خطر

فأخذت تفكر في وسيلة مستعجلة تخلص بها حياة صديق قرينها بسانيو ٠ ومرّ بها في تلك الدقيقة فكر رأته خير واسطة للنجاح ٠ وذلك ان لها نسيباً اسمه بلاريو يسكن في احدى القرى المجاورة لمدينة البندقية ٠ وهو فتىً في عنفوان الشباب جميل الطلعة أهيف القوام أتقن فن المحاماة وبرع فيه براعة فائقة حتى ذاع صيته بين اقرانه في تلك الانحاء

فذهبت اليه بورشيا وأخبرته بواقعة الحال واستفادت منه عدّة مواد فقهية تتعلق بالدعوي وطلبت اليه ان يعيرها حلته الخصوصية التي يلبسها ساعة المحاماة ومضت متنكرة مع خادمتها الى البندقية فوصلت اليها يوم المحاكمة وقد اجتمع الحاكم وهيئة المحكمة واعضاء مجلس الامة وجمع غفير من الناس في الديوان

فأظهرت لهم بورشيا رسالة من نسيبها بلاريو وفيها يقول للمجلس انه مريض لا يستطيع ان يأتي الى المحكمة ليحامي عن المدَّعى عليه انطونيو ولذلك فانه ينيب عنه زميله المحامي بلتزار (وهو اسم مختلق لقبت بورشيا نفسها به)

وكانت بورشيا متنكرة جيداً بثوبها التشريعي وشعرها الاصطناعي الطويل حتى ان الجميع توهموا انها رجل لا امرأة

وأخذت تجيل نظرها في الحضور فأبصرت اليهودي شيلك يتهلل وجههُ طرباً ٠ وبجانبه زوجها بسانيو وعلى مقربةٍ منه صديقه انطونيو ودلائل اليأس ظاهرة عليهما معاً

وبعد ان سمعت اقوال المدعي شيلك وحججه الدامغة واطلعت على كمبيالته بتدقيق وعناية بينت له صحتها واخذت تشرح له بفصاحة فائقة ان الرحمة في مثل تلك الحال أفضل ما يجمل به عمله مع رجل مشهور بالوطنية والاستقامة وهو لم يتأخر عن دفع

القيمة الا يوما واحداً . ولم يكن احجامه عن الدفع الا لاحوال قاهرة . ومع كل ذلك فسيدفع له اضعاف الدين مما يدل على علو نفسه وبعدها عن هضم الحقوق . فهل من العدل ان تخلو الشفقة من قلوب بني البشر وتحلَّ القسوة محلها ؟ . . .

فتأثر الحضور لكلام المحامي وتمنوا لو تمَّ ما يطلبه . اما شيلك فكان كالصخرة الصماء واصرَّ على تتميم العقاب بحسب نص العهد

فخنقت بورشيا من عناده وعدم ميله الى العفو عن صديق زوجها المسكين . وفي تلك الدقيقة فطنت لامرٍ رأته خير ذريعة للفوز على خصمها. فالتفتت الى انطونيو وكان مطرق الرأس كاسف الوجه وقالت له — تشجع يا انطونيو وكن رابط الجأش جريء الجنان فان شيلك سيقتطع رطلاً لحماً من جسمك الغضّ . فهل لك ما تقوله قبل انفاذ الحكم عليك ؟

فأجاب انطونيو — انني اصبحت كارهاً حياتي منتظراً الموت بفارغ الصبر . وان كنت لا ازال في نضارة العمر . ولذلك فاني اودّعكم ايها القوم قبل ان يلمس الخنجر جسدي . وسوف تقولون في مجتمعاتكم انني قضيتُ في سبيل الحق والواجب . وانت يا صديقي الحبيب بسانيو هات يدك لأُصافحك واودّعك وكن على ثقة تامة انني لست حانقاً عليك وان كنت سبب مصيبتي هذه . فاذكرني عند عروسك الجديدة وعيشا عيشة هنيئة راضية ، ملؤُها السعادة والوفاق والعافية

فلم يستطع بسانيو ان يحبس دموعه السخينة عند سماعه هذه الكلمات الوداعية المؤثرة . وشاركه الشعب بالحزن وسكب العبرات . وقد كان حزن بورشيا عظيماً ايضاً وعلى الخصوص عندما تقدم انطونيو لوداع زوجها . ولكنها مع كل ذلك أَخفت ما في نفسها من التأثر الشديد وقالت لليهودي شيلك واتباعه — أَحضروا الميزان لنزن به رطل اللحم . وعندما جاءوا به ظهرت على شيلك علامات السرور وتأكد له انه قد فاز على خصمه . فالتفتت اليه بورشيا والى جميع الحاضرين وقالت بصوت دوت له جوانب القاعة — لتأذن لي المحكمة قبل انفاذ حكمها واعلانه والمصادقة عليه ان اقول كلمتي الاخيرة التي هي فصل الخطاب في هذه الدعوى . فاعلم يا شيلك ان العمل الذي اقدمت عليه لم

يسبقك احد اليه . واذا كان يخيل اليك انك فزت بدعواك ورميت باقوالي عرض الحائط فقد طاش سهمك وكذب حلمك لانك اذا كنت لا تزال مصرًّا على قطع رطل لحم من جسم انطونيو فعليك ان تعمل بحسب الكمبيالة دون زيادة ولا نقصان . عليك قبل كل شيء ان تقطع رطلاً كاملاً . وان لا تدع قطرة دم تسقط على الارض . وان تضمن لانطونيو الحياة بعد ان تقطع منه اللحم . فابدأ بعملك الان واذا اخللتَ بواحد من هذه الشروط تُعاقب كمجرم وتحجز جميع اراضيك وبضائعك في حكومة البندقية

فامتقع لون شيلك عند سماعه هذا الكلام الغير المنتظر وحسب ان الارض تكاد تبتلعه وتأكد له ان آماله قد حبطت . ولم يعد في قوس الانتصار منزع لانه ان نجا من شرط فلا بدَّ له من السقوط في شرط آخر

ودهش اعضاء المحكمة وجميع الحاضرين لفطنة المحامي وحجته الدامغة . وهكذا قرَّرت المحكمة ان يقبض شيلك ماله . فاذعن للامر وعاد الى بيته حزينًا وهو يتعثر بأذيال الخيبة والندامة

اما بسانيو فسرَّ كثيراً ببراعة بورشيا وتقدم اليها بعد انفضاض عقد الجلسة وقال لها ووجههُ يلمع بشراً — ايها السيد الجليل والمحامي البارع لقد انقذت بحكمتك حياة صديق لي عزيز فارجو منك ان تقبل مني هذه الصرَّة من الدراهم التي كنتُ عازمًا على دفعها لشيلك لولا فطنتك الباهرة وذكائك النادر

فرفضت بورشيا قبول الدراهم وردَّتها ردًّا لطيفًا وقالت لانطونيو — اعطني قفازك (كفوفك) لاحفظه كتذكار دائم لهذه الحادثة الغريبة في بابها

ثم نظرت الى خاتم الذهب الذي بيد زوجها وقالت له — اما انت فلا اطلب منك لقاء عملي الا الخاتم الذي يزين اصبعك

فانتفض بسانيو انتفاضة الرافض الحائر وقال وقلبه يضطرب — تستطيع يا سيدي المحامي ان تطلب مني كل شيء ما عدا هذا الخاتم فهو هدية من عروستي وهو والحالة هذه أثمن شيء عندي

فتظاهرت بورشيا بالامتعاض وتحوَّلت عن زوجها قليلاً . فقال انطونيو لصديقه

بسانيو — اتوسل اليك يا اخي باسم المحبة ان لا تغضب حضرة المحامي فلبِّ طلبهُ واعطهِ الخاتم وانا الكفيل لك بارضاء عروسك واقناعها

فخجل بسانيو عندئذٍ ونزع الخاتم من اصبعه وسلمه للمحامي مكرهاً ...

اما بورشيا فضحكت في سرّها وودّعت الجميع وخرجت من دار الحكومة وعجلت في العودة الى بلدتها بلمونت . ولم تكد تدخل المنزل حتى نزعت ثياب نسيبها المحامي ولبست حلتها المعتادة وهي مسرورة بفوزها الباهر . وبعد هنيهة وصل زوجها ورفيقه انطونيو وعلائم السرور ظاهرة على محياهما . فاستقبلتهما بلهفةٍ وابتسام فأخبرها زوجها بجميع ما جرى وكيف انقذ المحامي انطونيو من الموت . ولكنه لم يذكر لها شيئاً عن امر الخاتم

وبينما هم يتناولون العشاء على مائدة الطعام التفتت بورشيا الى زوجها وقالت — ان سروري بخلاص صديقك انطونيو من الخطر لا يصفه لسان . ولكنني مستاءة من امر هو عندي من الاهمية بمكان وأُريد ان ابينه لك الان . انك تذكر ولا شك انني اهديتُ اليك يوم عرسنا خاتماً طلبتُ منك ان تحرص عليه . ولا أعلم كيف تجرأت على نزعه من اصبعك بعد ان وعدتني وعداً اكيداً انك تحافظ عليه محافظتك على حياتك . فأين الخاتم وكيف اضعته ولمن سلمته ؟ ...

فتأثر بسانيو لكلامها وضاق صدره كمداً وتلجلج لسانه

فنظر عندئذٍ انطونيو الى بورشيا وقال لها — أَعترف لكِ ان عزيزي بسانيو أعطى خاتمك لمن انقذ حياتي من الموت الى المحامي الذكي بلتزار ولو كنتِ انتِ مقام عريسكِ لما تأخرتِ عن الاقتداء به ، وتيقني انه لولا توسلاتي العديدة لما نزع الخاتم من يدهِ

وعاينت بورشيا قرينها بسانيو كئيباً فدنت منه وعانقته وهي تبتسم وقالت له — لا تحزن يا عزيزي فنفسي وخاتمي فدًى لك ولصديقك . وها انا سأُهدي اليك خاتماً جديداً يكون رابطة عهد الزواج الاكيد بيننا

وأَخرجت الخاتم من جيبها وناولته اياه فدهش دهشاً عظيماً عندما قلبه بين يديه وتفحصه جيداً فتأكد له انه هو هو الخاتم الذي كان معه وسلمه الى المحامي ..

وعندئذٍ لم تتمالك بورشيا من كشف الغطاء عن حقيقة الامر فأخبرتهما كيف تنكرت وذهبت الى البندقية حباً بانقاذ انطونيو من الخطر المحدق به . ثم أخرجت من جيبها القفاز الذي اخذته من انطونيو وأعادته اليه

فجمد بسانيو وانطونيو حيرةً ودهشاً وتعجبا من حكمة بورشيا وشجاعتها الادبية

وفي تلك الساعة دخل عليهم رسولٌ قادمٌ من البندقية يحمل الى انطونيو بشرى غريبة في بابها وهي ان مراكبه قد وصلت جميعها سالمة الى المينا وكان تأخرها عدّة ايام في عرض البحر بسبب العواصف والانواء الشديدة . فتضاعف سرورهم جميعاً عند سماعهم هذه البشرى، ونسوا في تلك الدقيقة جميع ما عانوه من الكدر والعناء، وعادت مياه اعمالهم الى مجاريها، وقضوا بقية حياتهم بالسعادة والهناء

علم ابرهيم دموس

العلم الاعزل

بين كل عام وآخر تعقد بعض الجرائد والمجلات الراقية فصولاً تبسط بها اهمّ الحوادث والاعمال الخطيرة التي جرت في العام المنصرم لتكون نصب اعين ابناء العام المقبل على امل ان يأتوا باعظم منها واجل نفعاً . وقد وقفتُ على احدى جرائد الوطن فاذا فيها شيء من ذلك الا انه لسوء الحظ لم يكن ذلك النزر اليسير الذي ذكرته مما يجلب فخراً او يُحمد ذكراً لانه اشبه بقائمة تصفية لتاجر مفلس، فقد اتت على ذكر ما اقتُطع من اجزاء الوطن وما فوجئت به الامة من خسارة المال والرجال لا اكثر . ونحن في حاجة الى تقويم مفيد ليس من هذا النوع اي مما

يتعلق بذكر الخسائر المادّية والمعنوية بل مما يبسط لنا البسط الوافي عما اتاه العلم من المرافق للوطن العزيز ليس لعام فقط بل لعشرات الاعوام اي منذ دخول العلم الى بلادنا وذلك من نحو نصف قرن حتى الان . ولكن اذا قامت جريدة وطنية او مجلة علمية وتوخّت هذا البحث فهل لها ان تجد مادّة لموضوعها ، وهل لها ان تجد سلسلةً من اعمال وطنية قد احدثها العلم القديم العهد في الوطن ؟ — كلا لعمري

يقولون ان العلم دعامة العمران ،— نعم واكثر من ذلك . ويقولون انه اساس التقدم والرقيّ ، — والبرهان على ذلك في غير بلادنا . ولكن ما بال العلم عقيماً في بلادنا مع قدم العهد به ؟ لو قابلنا بين دخوله الى بلادنا على يد البعثات والارساليات العلمية والدينية الاوروبية والاميركية ، ودخوله الى بلاد اليابان على يد تلك البعثات او الارساليات نفسها ، لوجدنا تاريخ دخوله الى البلادين واحدًا اذا لم نقل ان دخوله الى بلادنا كان اولاً . لكن بحياتك اية نسبة بين حالة البلادين اذا صحّ ان نجد نسبة حقيقية بينهما ؟ وكم هو الفرق عظيم والبون شاسع ؟ فاليابانيون بفضل ما اتاه العلم في بلادهم من الصالحات الطيّبات اصبحوا في عداد امم الارض المتمدنة والشعوب الراقية المرهوبة ، واما سوريا فلم تزل هي هي سوريا المنحطّة

ومعلوم ان العلم ينهض بالامم المنحطة وهو سبب الرقيّ في كل مكان وزمان بشرط استعماله فنًّا اي بحسب مدلول لفظة (فن) التي تطلق على العلم والصناعة مجتمعين . والفرق بين استعماله في بلادنا واستعماله في بلاد اليابان هو الذي اوجب وجود تلك المباينة السحيقة ، لان اولئك

استعملوه فنًّا فنجحوا وارتفعوا ونحن استعملناه نظرياً او (أعزل) فلبثنا في جمودنا وهبوطنا

كل شيء يحفظ نوعه في هذا الكون بطريقة المزاوجة . وكذلك العلم الراقي فانه يتطلب هذا الشرط ايضًا وهو المزاوجة بين العلم والصناعة والا فباطل الاعتماد عليه منفصلاً عن الصناعة . واقتران العالم بصناعة من جنسه هو شرط وجوبي لا بدَّ منه اذا كنا نطلب من العلم تفوّقاً او تقدمًا محسوساً . وهذا الشرط هو طبيعي ايضاً لان منشأ العلم اولاً هو مادّي يدوي اي انه كان اولاً طريقة او تجربة للوصول الى اتقان عمل يدوي وبعد اتقانه أُتخذت تلك الطريقة الموصلة الى كماله وسيلة لا بدَّ من الاحتفاظ بها كلما أُريد مزاولة ذلك العمل . ومن ثمَّ كان للانسان من ضمّ عدة طرق او تجارب بعضها الى بعض من نوع واحد علمٌ باصول يبحث في ذلك النوع . وما ذلك العلم الا نتيجة تلك التجارب او هو هي . فالطبيعيات على انواعها هي مجموعة طرق وتجارب عملية اكتُشفت بواسطتها اسرار جمة للطبيعة . ولذلك ترى كتب علماء الطبيعة لا تزال تتغيَّر كل سنة عما قبلها تقريباً اي كلما حدث اكتشاف جديد حققتهُ التجربة والاختبار يضاف الى تلك الكتب . وهل تلك الاضافات الا نتائج طرق عملية اشترك فيها العقل واليد واللسان ؟ وهكذا اكثر العلوم نشأت اولاً عن اعمال وتجارب يدوية وستدوم طريقة ايجاد العلوم متوقفة على الطرق العملية والابحاث الذهنية معاً الى ما شاء الله . اذًا فعلاقة العلم بالعمل هي علاقة طبيعية لا بدَّ منها

فاي النوعين موجود في مدارسنا ؟ أموجود فيها العلم فناً ام العلم

أعزل ؟ لو كان فناً كما هو في مواطنه الراقية لكان وطننا كتلك الاوطان من حيث التقدم والارتقاء المستمرّين . الا انني باسف اقول ان العلم في مدارسنا هو بهيئته الناقصة وحقيقته المنفصلة ، ونحن نطلب العلم لكونه علماً ولا نطلبه حباً بما يحصل لنا من المنفعة منه او ليكون لنا مساعداً لتهذيب ما نعمل والتفنن به

ان مدارسنا العالية اكثر مما نحتاج اليه وعدد خرّيجيها منذ عشرين سنةفقط اكثر من الكثير وهم لو جُمعوا في سهل فسيح لملأوا ذلك السهل وألفوا جيشاً جراراً . ولكن ماذا استفاد الوطن من هذه الكثرة ؟ هل أُحصي واحدٌ من الف من طلاّب هذه المدارس العالية بين العلماء الحقيقيين ؟ او هل قام مصلح واحد من هذا المجموع الكبير ينظر في ادواء وطنه ويداويه بما لديه من العلاجات الشافية ؟ او هل قام غيره وابرز الى الوجود اختراعاً يتعزّى به الوطن ويفتخر ؟– اذاً ماذا استفاد الوطن من اولئك الشبان المتأمركين والمتأكلزين والمتفرنسين ؟ – استفاد زهواً بالملابس ورطانة بالمنطق واجنبية بالذوق .. هذا ما استفاده لا اكثر ولا اقلّ . والا فليجبني صديق الطبيعيات اي ناموس اكتشف او اية حركة وقوة استخدم . وليصرح لي اليف الكيمياء اي مركّب حلّل واي مزيج استحضر . وليبيّن حليف الهندسة اي الطرق خطّط وصورة اي بناء رسم .. وهكذا لنسأل كل من انهى دروسه العالية من هؤلاء الطلاّب نباتياً كان ام جيولوجياً ام جغرافياً ماذا جمع لنا من معلوماته ووقوفه على كل فرع من فروع العلم الذي تعلمه وصرف المال في سبيله. فاذا لم يكن له على اسئلتنا جواب أفلا يكون تبرّؤه مما تعلمه أليق به ؟

كل فرع من هذه العلوم هو عملي مادي اكثر مما هو ذهني اعتباري . والمعرفة بقواعد العلم والتسليم بصدقها على ذمة الواضع، دون ان يكون مع المعرفة التمرين والتجربة او بالاحرى اذا لم يشترك في كل فرع منها العقل واليد واللسان، باطلٌ تحصيلها ومن الغبن التعويل عليها . وكم يكون الوطن سعيداً لو جرت هذه العلوم فيه مجراها الطبيعي وزاولها الطلاَّب كما تقتضيه منهم من اختصاص ببعض انواعها وتفنن بكل موادها . اما وقد أضحى تحصيلها عبارة عن استظهارها بدون اكتراث ولا زيادة حرص فما أسرع ذهابها من الذاكرة بعد الفراغ من تعلُّمها وما أخيب الوطن من فوائدها بل ما اطول سجن كتب تلك العلوم عندما يعود الطالب الى بيته وقد أعلن انتهاءه منها، فانه يلقيها حينئذٍ في صندوقه او خزانته قائلاً الوداع ايتها الكتب الضخمة ! كما قال احد خلفاء بني اميَّة وكان قبل خلافته يُلقَّب بحمامة المسجد لكثرة تعبُّده وتهجّده فلما أفضت اليه الخلافة قال مخاطباً قرآنه : الوداع يا كتاب الله العزيز ! ومضى في امور استبداده ومجونه

بقي علينا ان نبحث في ما هو سبب هذا المحل العلمي ولماذا اكثر فروع العلم التي درسها التلميذ مع كل سموّها وخطارتها تُهمل بعد تعلُّمها وتكون عقيمة مثل العلوم الرياضية والعلوم الطبيعية على انواعها الا ما اقترن منها بالعمل مثل الطب والصيدلة والحقوق، واما كل ما ذكر من العلوم فيصبح بلا جدوى ولا منفعة لا شخصية ولا وطنية، والا ما فضل الجبر والهندسة والمثلثات من العلوم الرياضية على لعبة الشطرنج والضَّامه والمنقله اذا تعلمها التلميذ ثم اهملها بعد تعلمها، وكأني بها في مدة تعلمها احد

هذه الالعاب المسلية والمنبهة للعقل كان يتعاطاها الطالب مدة تعلمها كمنبهات ومسليات للعقل حال كون الالعاب التي ذكرناها تكون افضل تسلية وبها ما بها من المقدرة العقلية . اذاً لماذا اكثر تلك العلوم المذكورة ينبذها التلميذ بعد تضحية المال والقوى الذهنية في سبيل الحصول عليها ، أفما كان الاجدر به لو لم يتعلمها من ان يتعلمها ولا يتمكن من استعمالها ؟

السبب في ذلك راجع الى فهمنا الغاية من اقتباس العلم في بلادنا حسب ظاهر الحال . لان لتعلم العلم عندنا غايتين الاولى ليكون العلم حلياً في الغنى والثانية ليكون معولاً عليه عند الشدّة او بكلام اصرح ليكون معاشاً وقت مسيس الحاجة والضرورة . فالاولى يعمل بها ذوو السعة والثروة : فترى الغني يرسل ابنه الى المدرسة ويصرف عليه المبالغ الطائلة ليكون يوماً ما صنّاجة مجالسه وهذار محافله وكفاه ذلك من دهره . وعلى الغالب لا يكون عاقدو تلك المجالس او المحافل الا من بسطاء العقول الذين يعجمون ولا يعربون ، فيأخذ ذلك الشاب يتكلم امامهم بالطبيعيات والرياضيات وبمبدأ النشوء والارتقاء فطوراً ينقلهم الى العلويات عالم النيّرات وتارة يهبط بهم الى السفليّات عالم الطبقات الارضية والميكروبات ، وابوه ينظر اليه شامخاً مفاخراً لا همّ له الا سماع عبارات الثناء على ابنه العلاّمة من اولئك الجلوس ، وهذا جلّ ما يتمنى والغاية التي كان يرمي اليها . ويا ليت هذه الغاية او الرغبة الباطلة تنحصر في طبقة الاغنياء وعشّاق الشهرة والفخر .. اما متوسط الحال فقد تدخل الى قلبه هذه الرغبة من جاره الغني فيتقلّده بالكثير مما اصطلح عليه او كان يميل اليه فيبعث ابنه الى المدرسة كما بعث ابنه الغني ويحمّل نفسه

فوق طاقتها ولو اضطره الامر الى بيع عقاره او بعض منقولاته . فيتعلم ابنه ويرجع اليه ببزّته الاوروبية وذوقه المتفرنج وابوه لا يكفُّ من الاعجاب به حتى لقد يحوّل كثيراً من مظاهر الاعتبار التي له الى ابنهِ ..

اما الغاية الثانية من تعلُّم العلم فهي ليكون معوَّلاً عليه اي ليكون منه لصاحبه مرتّب قانوني يتقاضاه شهرياً . والذين يُقدمون على تحصيل العلم ليكون لهم رأس مال يوماً ما هم الذين ينالونه بطريق الانعام اما من احدى الجمعيات الخيرية الاجنبية او الوطنية . وقد يكون على نفقتهم ولكن لا يتم لهم ذلك في الغالب الا بعد ان يكونوا قد تركوا كل شيء وتبعوه او باعوا ما فوقهم وما تحتهم . والذين يعملون بهذه الغاية هم المعلمون والوعّاظ والقسوس والمحامون ومن على شاكلتهم. على اني أرى لهولاء عذراً لانهم بهذه الكيفية يكونون قد جعلوا العلم عمليًّا على نوع ما . بيد ان الوطن لا يتأثر الا بالطرق الحسية ، لا يتأثر ولا يتقدم بسيره الا بما يشقّ اديمه وينبشه لتأتي ارضه بغلالها الوافرة وتجود بدفائنها الثمينة . والوطن عدا هذا لا يقوم على كتف معلم او خطيب واعظ او محامٍ لان غاية كل من هؤلاء فائدة نفسه اولاً ثم غيره ، الا الفائدة الدينية الناجمة عن الواعظ فهذه لا شكَّ فيها لان الواعظ بوعظه انما يُعدُّ لنا وطنية في السماء اذا كانت وطنيتنا على الارض منحطة ، فلا لوم اذا لم ينتفع الوطن ارضياً وانتفع سماوياً . واما افادة المحامي للوطن بعد فائدة نفسه فهي انه يمنح الوطن منه رجلاً ذكياً منطيقياً جريئاً على نصرة الحق والباطل فهو في وقت واحد يلعن ويبارك . اما الخطباء والكتبة فما اكثر ما نادوا وجهروا و كتبوا وتفاسفوا حتى لقد

ملأوا شرقنا عياطاً — ابنوا المدارس . بثُّوا المعارف . اكسروا قيود المرأة . ارفعوا شعار المدنية . اذا امتلأَت المدارس خلت السجون — كلام لم يفقه لهُ الوطن معنىً ولا وزناً ، بينما هم ينظرون اليه فيرونه كأنه يهتزُّ سكرًا ويميس عجباً وقد افتتن بتلك الفصاحة وهاتيك الطنطنة

البلاد امتلأت مدارس ونحن نستقلُّها دون ان نستغلَّ ما تيها حتى ان في مدينة واحدة كبيروت مثلاً عدة مدارس كلية وعالية . واقتناء المعرفة والوصول الى العلم اسهل في سوريا منها في بعض جهات اوروبا واميركا ، ومع ذلك لم يقتنع خطباؤُنا بعد ، وياليتهم غيروا اللهجة الاولى ونادوا — اعقدوا الشركات . ابنوا المعامل . ألّفوا الجمعيات . أحيوا الصنائع .. حتى اذا امتلأت الايدي وخلت الافكار من اكدار قلّة ما في اليد والجيب ترى ابناء البلاد حينذاك يثبون وثباً الى اقتناء المعرفة والحكمة . واذا كان حدُّ الخطابة الاقناع فما بال خطبائنا لا يقنعون بها متموّلي الشعب وينبّهونهم الى ما هو ألزم ؟

ان الاجانب بارسالياتهم العلمية قد رفعوا لنا نصف العيار من فتيلة مصباح العلم وأبقوا النصف الثاني بعد ان شوّقونا اليه ، فلنرفعه نحن لانفسنا كما رفعوه هم لانفسهم ايام اخذوا العلم عن اجدادنا . فهم انما يفون لنا دين الاجداد عليهم ، وكما اخذوا العلوم عنهم نظريةً ثم تفنّنوا فيها فهم يعيدونها الينا نظريةً بكل امانة وبطرق مجانية فلنتفنّن بها ونرقّها كما رقّوها هم ، ولنضع العلم وهو انفس شيء في وعائه الثمين الذي هو الصناعة . انهم بكونهم لم يمنحونا العلم والصناعة مقترنَين فذلك قد يكون عن قضاء او قصد منهم ، وذلك لانهم لا يريدون ان نشاركهم في

مصنوعاتهم التي هي علّة ثروتهم وسيطرتهم المالية ، والا لو فتحوا لنا مع المدارس معامل فقد نصير قادرين على مباراتهم بكل ما يصطنعون ، فتُحجز مصطنعاتهم لوجود مثلها عندنا وتبور ويقعون في الازمات التي نحن فيها اليوم ، ويكونون كأنهم ذبحوا شبح ارتقائهم بايديهم . والا فما معنى خوفهم من الخطر الاصفر ؟ أليس من هذا القبيل ؟ واذا كانوا يخافونه اصفر فلا يبعد ان يخافوه ابيض واسود ايضاً . ولذلك اذا لم يعطونا معامل لعلومهم فكأنهم لا يريدون ان يعطونا قوارير لنحفظ فيها طيوبهم ، وما ذاك (اذا صحّ الزعم) الا عن حنكة وحكمة

الرجل الاوروبي الراقي يولد ويده على اللولب والدولاب والاطار والبكرة وينشأ بين المدارس والمعامل فينتقي ما يوافق طبعه وميله من علم وصناعة فيمزجهما بعضهما ببعض غير فاصل بين الواحد والآخر فلذلك يتسع علمه وتتقن صناعته وتتولد فيه طبيعة الاختراع والابتكار فيها . وما اتيانه بالمعجزات العملية والاختراعات الدقيقة الا من فضل ادماجه العلم بالصناعة على طريقة فنية . ولكثرة ما أتى من الاختراعات الحديثة العجيبة أصبح وقد أضاف الى تعريفه كانسان (الذي هو حيوان ناطق) صفةً له فارقة ليست في طبيعتنا الضيقة وهي الاختراع فصرنا نقول عنه انه حيوان ناطق مخترع باضافة لفظة مخترع الى التعريف الاول المشهور . وقد يُقال ان البشر ليسوا كلهم قابلين للارتقاء لوجود النقص في تركيب الادمغة عند البعض او لعادات منحطة وهي فيهم بمنزلة طبيعة ثانية ، فأجيب على هذا ان الوسائل القوية الفعّالة توسّع الادمغة وتكثر مادتها . خذ زنجياً متوحشاً ومكّنه من مشاركة اولئك الراقين في ما

يصطنعون وانت ترى بعد ذلك اذا كان يباريهم في اعمالهم ام لا . أوهل فاتك تعليم الحصان حساباً والهرّ ادباً والقرد حياكةً ؟

ولقد يؤْخذ عليَّ انني بكل ما قدَّمت انما اردت الحط من قدر العلم والتزهيد فيه . على ان مَن يرميني بهذه التهمة يكون قد ظلمني . فانا ممن يزعمون بوجوب منح العلم بكل مجّانية سواء كان ابتدائياً او عالياً كما تمنح الطبيعة النور والهواء والماء لكل حيّ بدون مقابل . الا ان ثقتي ضعيفة جدًّا بالحصول على النتائج الصالحة منه في بلادنا ما دام لا يستعمل فناً اي غير مقترن بالصناعة . وأُريد من وراء ذلك ان يخفف الوطنيون من كثرة الافتكار في افتتاح المدارس التي يحسبونها عالية وهي اقل من بسيطة لخلوّها من التفنن الصناعي وان يقبلوا على انشاء معمل لاحدى الصنائع كلما اقبلوا على بناء خمس مدارس . وليعلموا انـه ليس بالعلم وحده ينهض الوطن من كبوته ما لم يحيَ بالاعمال والمؤسسات الصناعية والزراعية والتجارية . وعندي ان الاكثار من المدارس الابتدائية هو عين الصواب لان بلادنا في غنىً عن الاكثار من المدارس العالية وهي دون ابتدائيات المدارس الغربية لان البلاد لم تقوَ معدتها بعد على هضم تلك المدارس العالية اذا كثرت وهي ذات مواد دهنية (تلبك) معدة الوطن ولا تفيده كثيرًا . فالى المدارس الابتدائية ايها المواطنون والى تأليف المشاريع الهامّة حوّلوا اهتمامكم والله المسؤول ان يأخذ بأيديكم ويكلّل مقاصدكم واعمالكم النافعة بالنجاح والتوفيق

المشتى — انيس منري الحلو

امام المرآة

أباح لنُعمى الحسنُ ان تتحكما فهان عليها ان تجورَ وتظلما
فما ابتسمت الا لتضليل ذي هدىً وما عبست الا لتردي متيما
وجاءت الى المرآة تصلحُ شأنها وتضفرُ شعرًا كالدجنَّةِ اسحما
فأعجبها ما أبصرت من محاسنٍ فقالت ولكن عجبها قد تكلّما
كأنَّ بياض الوجه تعلوه حمرةٌ على الخدِّ ثلجٌ حين تنضحه دما
ويا لكِ عيناً كهربائية الضيا أبى سحرُها في اللبِّ الا تحكُّما
ويا لكَ جيدًا قد اضاء كأنما أذابَ عليه صائغُ الحسنِ انجما
ويا لكَ صدرًا ضمَّ ثديين فيهما أرى ابداً سرَّ الغرام مجسّما
ويا لكَ خصرًا داومَ الردفُ جذبه لذاك غدا من جوره متظلّما
ولله ثغري ما ألذَّ رُضابه ولله صوتي ما أرقَّ وأرخما
وما ليَ نِدٌّ في الانامِ فمن يَرُمْ وصاليَ لا يدركْهُ الا توهّما

***

وكان فتىً غضُّ الشبيبةِ سامعاً مقالةَ نُعمى فانتحاها مسلّما
وقالَ أفعلي يا نعمَ ما تبتغينهُ فإمَّا انعطافاً او صدودًا محتماً
إبائيَ يأبى ان اكون متيَّماً بمن قلبها ما أنفكَّ بالعجبِ مُفعما
وإنَّ محباً لا يبادلهُ الهوى حبيبٌ لمن يحسبُ الذلَّ مغنما
اجابته نعمى بأزدراء كأنها مليكةُ عرشٍ اذ تكلمُ مُعدِما
أيهوى فؤادي من بني الارض واحدًا وقد هامَ بي وجدًا ملائكةُ السما

أمـا وجـمـالي يا غبيُّ أليَّةً لقد جئتَ تستجدي اخا الشحِّ انعُما
ألا فالتمس غيري فـاني لم اكن لأرحمَ من بين المحبينَ مغرما

***

ومرَّت على نُعمى ثلاثون حجةً فأنقصتِ الخمسونَ منها المتمّما
وجاءَت الى المرآةِ ثانيَ مرةٍ وأحسبها لم تبغِ ان تتقدما
رأت غيرَ هاتيك الفتاةِ فأجفلت ومن همّها قد خالتِ الصبحَ مظلما
رأت صورةً افنى الزمانُ جمالها وكم لبست وشيَ الجمالِ منمنما
وقـالت تناجي نفسهـا وبقلبهـا سعيرُ اسىً ممـا رأتـه تضرَّما
أأنظرُ نعمى ، لا فنعمى صبيَّةٌ حوت معطفاً لدناً وخدًّا منعما
أتخدعني عيني ، نعم إن هذه من اللآء لم يسكنّ الا جهنما
أرى عجباً ، أمشي وابرزُ معصماً فتمشي كما أمشي وتبرز معصما
وأرفعُ رأسي وهي ترفعُ رأسها وأضحك او أبكي فتفعلُ مثلما
نعم انها نعمى ، نعم انهـا انـا اراني عرفتُ الان ما كان مبهما
محا الدهرمن وجهي سطورَ محاسنٍ وهيهات ان تجـدي لعلَّ وليتما
غدا وردُ خدّي ذابلاً بعد نضرةٍ وأصبحَ ثغري لا يُجيدُ التبسُّما
وفي ليلِ شعري أطلعَ الشيبُ صبحَهُ ولم أرَ شيئاً كالمشيبِ مذمّما
وَمن كان يبغي الفوزَ مني بنظرةٍ يُرى الان إن كلمتهُ متبرِّما
وإنّ بـأمري للحسانِ لعبرةً وعمـا اعـانيه لسانـاً مترجما

***

وجاء الذي أضنته في زمن الصِبا فقال لهـا مستهزئـاً متهكما
دعى اللهُ قدًّا كـالقضيب تثنياً ووجـهـاً بهياً بـالرُّواء ملثما

وثغرًا بدا كالاقحوانِ مفلّجا وصارمَ جفنٍ في القلوبِ تحكّما
توهّمتِ جهلاً انّ حسنكِ دائمٌ وكم من امورٍ تخدعُ المتوهّما
الا فاذكري يا نعمَ يومَ رددتِني كما رُدَّ عن وِردِ الزلالِ اخو ظما
ولو كانَ تقوى ما فعلتِ وعفةً لهان ولكن كان عُجباً فبئسما

امين ناصر الدين



الشلين

رواية

رُوي ان رجلاً في الثامنة والثلاثين من عمره يُقال له فنطون كان في اشدّ حالات الفقر والحاجة ، وقد اصبح في احد الايام وهو على شفا الهلاك لان يومين كاملين مرّا به دون ان يذوق فيهما طعامًا او يرقد على فراش ، ومن اين له ان يأكل او يجد لنفسه مأوىً وليس معه شيء من الدراهم . وكان الجوع قد أثّر فيه تأثيرًا سيئاً فأخذ يجول من مكان الى آخر في شوارع لندن العظيمة علّه يجد ما يسدّ به الرمق ، وظلّ تائهاً يسير على غير هدى وقد أظلم عقله وسئم الحياة

وكان وهو في تلك الحالة يلوم نفسه لعدم انصبابه على الشغل ولقضاءسني حداثته وشبابه في البطالة واللهو حتى اصبح في جملة المتشرّدين والفقراء المدقعين . وادرك الان ان المال هو حياة البشر ، وان الانسان بلا مال مائت لا محالة ، وان الجلوس في احقر السجون هو افضل بكثير

من ان يكون الانسان حرًّا ولا دراهم بين يديه يدفع بها عن نفسه الجوع والذلّ

خطرت هذه الافكار لفنطون وقد زادته سوءا وشقاء فانزوى في احد منعطفات الطرق وبكى بكاء مرًّا . ولكنه شعر بان البكاء لا يجديه نفعاً بل يزيد آلام نفسه ، فمسح دموعه بمنديل كان في جيبه وعاد الى المسير في تلك الشوارع الرحبة والجوع يضغط على نفسه ضغطاً شديداً ، وقد شعر وهو بين تلك الالوف العديدة من البشر التي كانت مزدحمة في تلك الشوارع بانقطاعه عن عالم الاحياء وانفصاله عن جسم الهيئة الاجتماعية القاسية ، فزفر زفرة حارّة وواصل سيره وفي نفسه ما يمزّقها وفي قلبه ما يسيل دماءه

وكان الكلال والجوع قد نهكاه وأثّرا فيه شديداً فشعر بخور في عزيمته وانحلال في اوصاله واصبحت رجلاه غير قادرتين على حمله ، فمال الى حائط في الشارع استند اليه وغاص في تأملاته المحزنة

وبينا هو كذلك واذا برجل يسير بالقرب منه وقد حمل بين يديه صندوق ثيابه . فنظر فنطون الي وجهه فتوسم فيه خيراً وعلم انه متوجه الى محطة القطار ، فأسرع اليه وقال له بصوت فيه رنة الحزن الشديد — اسمح لي يا سيدي ان احمل لك هذا الصندوق الى حيث تريد

وكأنّ الرجل قد ادرك بلحظة الدافع الذي حمل فنطون على ان يعرض نفسه لخدمته ، فدفع اليه الصندوق دون ان يكلمه شيئاً

وشعر فنطون بتجدد قواه ونشاطه فسار بين يدي الرجل حتى اوصله الى المحطة وادخله الى احدى مركبات القطار وقد وضع الصندوق

في المركبة وهمَّ بالانصراف فناوله الرجل قطعة من النقود، اخذها فنطون شاكرًا وخرج وقد طابت نفسه وانتعشت قواه لان الاجرة التي استحقها اليوم كانت شليناً كاملاً وهو في نظره مبلغ كبير يستطيع ان يستعين به على سدّ جوعه في ذلك المساء وعلى ايجاد مبيت له على فراش وليس على اديم الارض في الخلاء

وسار بعد ذلك والسرور يرنح معطفيه الى احد مطاعم لندن الحقيرة وطلب فنجاناً من القهوة وقطعة من الخبز وجلس يأكل بلذة فائقة وقد رأى ان فنجان القهوة هذا الذي أحرزه الان بتعبه هو ألذّ كثيراً من كل شراب وطعام وشعر في الوقت نفسه بانه يستطيع الحياة في هذا العالم الكبير اذا اعتمد على نفسه واستخدم قواه

وخرج بعد ذلك من المطعم بعد ان دفع خمسة بنسات ثمن الطعام وبنساً واحدًا ثمن خمس لفافات من التبغ وبقي معه ستة بنسات خبأها في جيبه بحرص ليدفعها اجرة المبيت وسار في الشارع ووجهه طافح بالهناء وقد عزم ان يهجر حياة التشرّد والبطالة ويبحث لنفسه غدًا عن خدمة او عمل يقيه كوارث الدهر

ولكنه ما أبعد عن المطعم الا قليلاً حتى أبصر رجلاً من رفاقه المتشرّدين وكان قد قضى واياه ليلة امس نائمين في الخلاء . وكان هذا الرفيق على آخر رمق من الجوع والاعياء وقد رأى فنطون في وجهه علامات اليأس والحزن فانقبضت نفسه وأدركته عليه شفقة عظيمة وشعر بدافع يدفعه الى مساعدته ولو حرم نفسه المبيت . وفي الحال اخذه بيده وعاد به الى المطعم وطلب له فنجاناً من القهوة وقطعة من الخبز ودفع

عنه خمسة بنسات وخرج بعد ذلك هائماً على وجهه ولكنه كان مسروراً لانه استطاع ان يعمل خيراً لقريبه وقد انقذه ولو وقتاً يسيراً من الضيق الذي كان يشعر هو بثقله منذ هنيهة

وفيما كان فنطون سائراً من شارع الى شارع وقد ساورته الهموم وتراكمت عليه الهواجس استلفت بصره في جهة من بعض الشوارع محل كبير تألقت على ابوابه المصابيح والانوار الباهرة فسدَّد خطواته اليه واذا به يرى اعلاناً كبيراً من الانوار باسم احدى جرائد العاصمة والى جانبه اعلانات اخرى بمواضيع عدد ذلك النهار . وكان قد بقي مع فنطون بنس واحد فرأى ان يبتاع به نسخة من تلك الجريدة ويلهو بها وقتاً من ذلك الليل الطويل . ولم يبطىء ان تقدم الى محل مبيع الجريدة وابتاع عدداً ومضى في سبيله . وما سار قليلاً حتى وقف في شارع بالقرب من بعض المصابيح الكهربائية واخذ يتصفح تلك الجريدة ومضى عليه نحو نصف ساعة وهو غارق في المطالعة وقد رأى فيها ما شاقه كثيراً

وان هو لكذلك واذا بشاب حسن السربال جميل الصورة قد دنا منه والقى يده على كتفه ثم ناوله غلافاً دون ان ينبس ببنت شفة . فأخذ فنطون الغلاف باستغراب ثم فضَّه فرأى فيه حوالة على ادارة الجريدة التي كان يطالعها بقيمة مئة شلين . فجحظت عيناه ونظر الى الفتى مستفهماً متعجباً وهو يظن ذلك حلماً

فقال له الشاب — هذه حوالة لك من ادارة الجريدة التي في يدك وانا من المستخدمين فيها فقد عيَّنت ادارة هذه الجريدة لاعلانات هذا الاسبوع ثلاثة الاف ليرة توزعها حوالات كل حوالة خمس ليرات على

كل مَن نراه يطالع جريدتنا في الشوارع . فأخبرني الان عن اسمك وعنوانك

فقال له فنطون وقد اشرق وجهه سرورًا – اني بلا عنوان يا سيدي لاني من ابناء الشوارع وقد ابتعتُ جريدتكم باخر بنس كان لديّ

ثم قصّ له قصته من اولها الى آخرها

فقال له الشاب بعد ان سمع القصة بكل اصغاء – هلمّ اذًا معي الى ادارة الجريدة لنبدل لك هذه الحوالة بجوالة اخرى اكثر قيمة لانك اعطيتني موضوعاً جديداً للكتابة تستحق لاجله اجرة اخرى

ثم سار به الى محل الادارة فسرد فنطون قصته ثانية لاحد المحرّرين وخرج بعد ذلك وفي جيبه مئتا شلين او عشر ليرات انكليزية . فبات بعد ذلك قرير العين ناعم البال وقد وطد عزمه ان يصلح شأنه ويسعى من صباح الغد وراء عمل يتعاطاه ليدرأ عن نفسه مرارة الشقاء وسوء المصير

وقد قرأ في اليوم التالي جريدة ذلك النهار وفيها قصته بتمامها كما جاءت اعلاه فسُرَّ سرورًا عظيماً وقال في نفسه : لقد ابتعتُ هذه السعادة بتلك الخمسة بنسات التي أغثتُ بها رفيقي وانقذته من ألم الجوع الذي لا يُطاق

من لطيف ما وُصف به « الحبّ » قول معاذ بن سهل : الحبّ اصعب ما رُكب، وأسكرُ ما شُرب، وأفظعُ ما لُقي، وأحلى ما اشتهي، وأوجع ما بطن، وأشهى ما علن

ماذا أتمنى لابنتي

في الجزء الثالث من هذه المجلة مقالة لطيفة لحضرة الكاتب المعروف لدى قرّاء النفائس العصرية تضاربت فيها تمنيات الآباء لبناتهم · وقد ذكّرتني بما تمناه عبد العزيز الديريني لابنته ، وابن الواعظ لجميع البنات · ولما كانت تمنيات هذين الشاعرين لاتروق في عيني عاقل ولا هي مما يحسن ان يتمناه اب لابنته ، فقد اوردتها كما هي ، واتبعتها بما اتمناه انا لابنتي

قال الاول :

أحبُّ بنيتي وأودُّ اني	وضعتُ بنيتي في قعر لحدِ
وما هو بغضةٌ فيها ولكن	مخافة ان تذوق الذُلَّ بعدي
اذا زوَّجتُها رجلاً فقيرًا	أراها عنده والهمُّ عندي
وان زوَّجتُها رجلاً غنياً	تعيش حياتَها في حالِ عبدِ
وان ساق النصيبُ لها لئيماً	يسبُّ ابي ويتبعهُ بجدّي
سألتُ اللهَ يأخذها قريباً	ولو كانت أعزَّ الناس عندي

وقال الثاني :

القبرُ سترٌ لجميع البناتْ	وهو كما يُروى من المكرماتْ
اما ترى الخالق سبحانهُ	قد قرن النعش بجنب البناتْ (١)

واما انا فاني

أتمنى لابنتي الخُلقَ النبيلا	وهناء العيش والعمرَ الطويلا

(١) بنات نعش الكبرى سبعة كواكب اربعة منها نعش وثلاث بنات وهي القائد والعناق والجوزاء

أتمنى لابنتي عقلاً سليماً ينبذُ الوهم ويهديها السبيلا
أتمنى اللطفَ فيها يتجلّى لبناتِ العصرِ صبحاً وأصيلا
ذاتَ قلبٍ مفعمٍ طهرًا وكبرًا ولسانٍ كارهٍ قالَ وقيلا
ذاتَ علمٍ وذكاءٍ ونشاطٍ وخصالٍ صالحاتٍ لن تزولا
واذا ضلَّ بناتُ العصرِ يوماً وجلبنَ الهمَّ والخطبَ الثقيلا
أتمنى ان تُرى خيرَ مثالٍ يتمثَّلنَ بها الفعلَ الجميلا
انما الحسن لها لا أتمنى اذ حباها اللهُ حسناً لا مثيلا
وحبتها زرقةَ العينِ سماءٌ وحباها الوردُ لوناً لن يحولا
وحباها ثلجُ ساليمَ (١) بياضاً وحباها الرشأُ العنقَ الطويلا
وحباها البدرُ منه طلعةً والـ شمسُ شعرًا ذهبياً مستطيلا

***

فاذا ما جاءني يوماً جهولٌ ساحباً في المال والجاه ذيولا
وابتغى منيَ امرًا مستحيلاً لستُ ارضاه بنعليها بديلا

القدس — جرجس الخوري ايوب

خواطر

الغيرة للحب كالهواء للنار يزيدها اشتعالاً ثم يفنيها

مَن قرأ كتاباً فقد حادث مؤلفه ، فلا تحادث الا كبار الرجال

اذا شئت ان تكون سعيداً فانظر الى مَن فوقك في العلم والى مَن دونك في المال

نجيب الحداد

---

(١) اورشليم

صدى الصحف

بعض اغلاط المتمدنين

مما اختبرته من اغلاط اكثر البشر اربعة وهي ما يأتي :

(١) انهم يرون قيمة الشيء بنفاسته والصواب ان قيمة الشيء باعتبار نفعه والحاجة اليه فقد تكون قيمة رغيف من الشعير خيراً من اكبر حجارة الالماس النقي . فمن القصص المشهورة ان بعض المسافرين نفد زاده وكان يجوب فلاةً بعيدة الاطراف وقد اشتدَّ به الجوع فرأى في طريقه كيساً فاسرع اليه فرحاً فوجد فيه كثيراً من اثمن حجارة الالماس فقال وا أسفاه ليس فيه سوى الالماس . والحديد عند العقلاء تفوق قيمته قيمة الذهب لكثرة منافعه وانما كان الذهب اثمن منه لقلته بالنسبة الى الحديد . ومنافع الحديد اوضح مما تبين واوفر مما يُحصى

(٢) انهم يرون الغني الذي لا يعمل لكثرة غلاله واملاكه اشرف من الصانع واكبر قيمةً . والصواب ان الشريف الكبير القيمة مَن يعمل من حارث وزارع وحائك ونجار وحداد وغيره فانه ينفع نفسه وغيره بتعبه وعليه قيام العمران وراحة الانسان . ومن شرّ الخطإ ان الكثيرين يستخفون بهولاء حتى صار الذين يتهذبون في المدارس يأنفون من مثل اعمالهم وهذا طريق التأخر المؤدية الى الخراب

وذكرت هنا نادرة انبأني بها احد الشبان المتعلمين قال ما عجبت مثل عجبي من حارثٍ وقفتُ به واردت ان امازحه فقلت له يا عمّ اني من طلبة العلم وقد صعبت عليَّ مسئلة حسابية فهل لك ان تساعدني عليها فقال « هاتها » . فقلت قنطار بقل وقع عند قرية نمل فكل الف ومية اكلت ربع اوقية فكم كان عدد النمل . فاطرق قليلاً وقال « خمسة الاف الف ومئتا الف وثمانون الفاً » ثم قال « وانا اسألك مسئلة بسيطة وهي كم اصابع يدَي الهرّ ورجليه » فتبسمت وقلت عشرون فأغرب في الضحك وقال « بل هي ثماني عشرة لا عشرون يا فيلسوف » . ثم علمت انه هو المصيب وانا المخطىء

(٣) انهم كثيراً ما يعتنون بحياة بعض البهائم الدنيئة وغير النافعة و يقتلون الشريفة والوافرة النفع لما لا مدخل له في مقوّمات الحياة او محسناتها فانهم يقتلون في افريقية من الفيلة والنعام وغيرهما من الطيور كل سنة ما يكاد يعدل ما تقتل الحياة ويُقتل منها كل سنة في الهند حتى يخشى ان يُباد من افريقية النعام وذلك الحيوان النبيه النافع كل النفع في هذا العصر كما كان كذلك في العصور الخالية . فانه منذ عهد لا يُعرَف اوّله كان يحمل الناس وامتعتهم واثقل احمالهم في اسفارهم وحروبهم وهو من افهم الحيوان بعد الانسان و يقبل التعليم والتهذيب الى حدٍّ بعيد بالنسبة الى سائر البهائم . زعم قدماء الهند ان لسان الفيل مقلوب ولولا ذلك لتكلم . وفي حياة الحيوان الكبرى للعلامة الدميري في الكلام على الفيل ما نصهُ « وفيه من الفهم ما يقبل به التأديب و يفعل ما يأمره به سائسه من السجود للملوك وغير ذلك من الخير والشر في حالتي السلم والحرب ... والهند تعظمه لما اشتمل عليه من الخصال المحمودة من علو سمكه وعظم صورته و بديع منظره وطول خرطومه وسعة اذنيه وثقل حمله وخفة وطئه فانه ربما مرّ بالانسان فلا يشعر به لحسن خطوه واستقامته » . وقالوا ان الفيل قد يعيش اربع مئة سنة . وآذان الفيل الافريقي اكبر من آذان الفيل الهندي . وهذا من بعض مميزات الاول عن الثاني

قال بعضهم وقتل كثير من الفيلة لمجرد انيابها و بعض عظامها من عيوب اهل التمدن الكبيرة . وقال احد الفرنجة ان حسن خَلق الفيل وخُلقه ووفرة فهمه وخدمته للناس مما يوجب اكرامه والحرص على حياته . وقال آخر ان البينات قاطعة على ان الفيل كان من دواجن اهالي قرطاجنة . وانه قطع جبال الالب بحنيبعل (او هنيبال) . قال غردون باشا قتيل الخرطوم « من افظع المناظر ان ترى ركاماً من انياب الفيلة قُتل لاجلها كثير من ذلك الحيوان النبيل » . وقالوا ان الجمال والخيل تعجز عما يقدر عليه الفيل في الاسفار لان تلك يضرّها بعض انواع الذباب وهذا لا يكترث لها او يحتمل اذاها اكثر من سائر البهائم التي تحمل الانسان واثقاله

ويقرب من هذا قتلهم النعام بغية تزيين البرانيط النسائية واي نفع من ذلك واي

حاجة اليه واي جمال خارق العادة منهُ ؟ ان كثيرين يرون الازهار الصناعية المزينة بها البرانيط اجمل من ريش النعام وليس فيها ما يدل على قسوة البشر ويحزن نفوس اهل الشفقة

وكم قتلوا من الطيور التي تبهج بريشها الناظرين وربما نفعت بافتراسها كثيراً من الهوامّ الضارَّة لمجرَّد ذلك الريش . أفلا تعيش النساء بدون تزيين برانيطهنَّ بريش هذه المخلوقات الحسنة النافعة ؟

(٤) وهو من افظع الخطإ ان كثيرين من الناس يتوهمون ان البهائم لا شيء لها من الحس الباطن فلا تتألم ولا تحزن كالانسان وان لا شيء لها من الذاكرة . ومن الغريب انهم يعتقدون ذلك وبينات الفساد على هذا الاعتقاد تُشاهد كل يوم في البهائم الداجنة كالكلب والهرّة . وما تبديه من الاصوات الدالة على الالم والحزن اوضح من ان تُبين . انبأني احد الاصحاب ان هرّة سُرق درصٌ لها فكانت تموء مواءً يدل على شدة حزنها وانها مرضت منه وماتت بعد بضعة ايام . وجاء في بعض كتب الحيوان الانكليزية ان سنونواً ذهبت انثاهُ من عشها ولم ترجع اليه ففتش عنها فلم يجدها فرجع الى العش ولم يخرج منه فافتقدوه فاذا هو ميت فيه . وشاهدت بعيني حماراً مربوطاً يبكي فانبأت صاحبه فعضّ اصبعه اسفاً وقال اني نسيت ان اقدم له العليق هذا اليوم . فلما اطعمه انقطعت دموعه . فاذا كانت هذه حال الحمار فما قولك في الفيل الذي هو من افهم البهائم وانبهها ؟ وقد عجبت كل العجب من رجل يدَّعي الفلسفة اذ قال لي ان البهائم لا حياة حقيقية لها وما هي الا مركبات تركيباً آلياً فحركاتها من تركيبها كالساعة وغيرها من المتحركات التي يصنعها البشر . وهو يشاهد كل يوم البهائم المألوفة حتى البعوضة تهرب من المهلكات والمؤلمات وشتان بين ذلك والآلات الصناعية . واظن مثل هذا الفيلسوف يضحك على الجمعيات المُنشأة للمحاماة عن البهائم ويحسب من افظع الجهل ان يكون واحداً من اعضائها لانها تحامي عن آلات مركبة على زعمه وهو الجهل المركب عينهُ

واختم هذه المقالة بقصة غريبة تتعلق بالفيل واترك الحكم فيها للقارىء وانا اقول ان وقوعها ممكن . نقل الدميري عن الحلية في ترجمة ابي عبد الله القلانسي ما نصهُ «انهُ

ركب البحر في بعض سياحاته فعصفت عليهم الريح فتضرع اهل السفينة الى الله تعالى ونذروا النذور ان نجاهم الله تعالى والحوا على ابي عبد الله في النذر فاجرى الله على لسانه ان قال ان خلصني الله مما انا فيه لا آكل لحم الفيل · فانكسرت السفينة وأنجاه الله تعالى وجماعة من اهلها الى الساحل · فاقاموا به اياماً من غير زاد · فبينما هم كذلك اذا هم بفيل صغير فذبحوه واكلوا لحمه سوى ابي عبدالله فلم يأكل منه وفاء بالعهد الذي كان منهُ · قال فلما نام القوم جاءَت امّ ذلك الفيل تتبع اثره وتشمّ الرائحة فكل من وجدت منهُ رائحة لحمه داستهُ بيديها ورجليها الى ان تقتله · قال فقتلت الجميع ثم اتت اليّ فلم تجد مني رائحة اللحم فاشارت اليّ ان اركبها فركبتها فسارت بي سيراً شديداً الليل كله ثم اصبحت في ارض ذات حرث وزرع فاشارت اليّ ان انزل · فنزلت عن ظهرها فحملني اولئك القوم الى ملكهم فسألني ترجمانه فاخبرته بالقصة · فقال لي ان الفيلة قد سارت بك في هذه الليلة مسيرة ثمانية ايام · قال فلبثت عندهم الى ان حُملت ورجعت الى اهلي »

«النشرة الاسبوعية» — ابرهيم الحوراني



امرأة ذات لحية

في فرنسا امرأة وهبتها الطبيعة لحية طويلة ، وللطبيعة شواذ كثيرة ، وتلك اللحية تسبب لها عذابات اليمة

سألها احد مراسلي الجرائد : هل انتِ سعيدة ؟ فاجابتهُ لا ، لما كنتُ صبية طرّ لي شارب صغير فوجدته جميلاً واعتنيتُ به كثيراً لكي ينمو ، وكان الرجال يجدون شاربي احبّ شيء فيّ

بعد الشارب نبتت لحيتي فكنتُ انظر الى المرآة فأرى لي هيئة مدفعي في عسكر نابوليون واعمل حركات عسكرية

كنتُ في ذلك الوقت اقول : لقد اعطاني الله هذه اللحية لاخلص من تحرشات الحيوان الذي يُدعى رجلاً وقد خُلق ليستعبد المرأة ويعذبها · لكنني كنت مخدوعة فمع هذه اللحية لا يزال الرجال يتبعونني واهرب منهم وكلما نمت لحيتي ازداد عدد عشاقي

كان الوف من الرجال يطارحونني الغرام وكل اقوالهم كانت تنتهي بهذه الكلمة :

واحرقتاه من لحيتك و ياطول شوقي اليها ! حينئذٍ كرهت الرجال لخشونتهم وعدم شعورهم ، كيف لا وهم يحبونني وانا امرأة ذات لحية

ثم عزمتُ ان انخرط في فيلق النساء الانكليزيات المطالبات بحقوق المرأة فكتبت الى الزعيم اطلب اليه ان يقبلني في فرقته و يقلدني اية وظيفة كانت ولو حمل العلم . وأرسلتُ اليه صورتي مع الكتاب

فعقد جلسة وعرض على النساء صورتي فحسبنني احد رجال الشرطة المتنكرين لاكتشاف الاسرار . فارسلتُ كتاباً آخر اكثرتُ فيه الالحاح وطلبت فحص التحقيق

ثم سافرتُ الى دوفر حيث تمّ الفحص وتأكد الجميع انني امرأة بالرغم عن طول لحيتي . وعقدت النساء جلست ثانية ليتداولنَ في امر قبولي بينهنَّ او عدمه

ولسوء حظي لم أُقبل لان العمدة قرَّرت ان لحيتي تعطيني هيئة الجنس القبيح الذي يستعبد المرأة . ولهذا لستُ سعيدة ولا راضية بهذه الحياة ، فالرجال يتبعونني حباً للحيتي والنساء يطردنني لان لي لحية الرجال ... « الحمراء »

لطائف شعرية

أنسنا في هذا الشهر بمقابلة صديقنا الشاعر المطبوع والكاتب اللغوي المجيد امين افندي خير الله محرّر ومدير مجلة « النعمة » الغراء وقد قدم القدس في هذه الايام للتبرك بزيارة الاماكن المقدسة فيها ، فسألناه بهذه المناسبة ان يتحف « النفائس العصرية » بشيء من لطائف شعره ، فأنشدنا ما يأتي ، واكثره ارتجالي :

قال يخاطب « المدينة المقدسة » :

صهيون يا وطناً اكرمْ به وطناً ... يحجّه الناسُ من قاصٍ ومن دانِ
ترابُ ارضك فوق التبر منزلةً ... وعدّ صخركِ من درٍّ ومرجانِ
وفي حماكِ نفوس الناس قاطنةٌ ... وان نأت عنكِ اجسادٌ باوطانِ
يرون في لحظاتٍ يسعدون بها ... في ظلّكِ المتمنّى خير ازمانِ

فجادكِ اللهُ من آفاق نعمتهِ من كل خصبٍ ورغدٍ كلَّ هتّانِ

وقال في « الكتاب المقدس » :

كلُّ مرءٍ وانْ يكن ربَّ علمٍ هو في حاجة الى مستزادِ
يجتني منه ان اصاب سبيل الـ ـهدي بشرى جنى حلت كالشهادِ
ويرى منه ان اساء صنيعاً موقظاً موضحاً سبيل الرشادِ
ان ذاك الهادي الامين كتاب الله يولي الضياء كلَّ العبادِ
فتخيَّرهُ دون كلِّ خليلٍ تجنِ من كنزه اجلَّ مرادِ
وتصفحهُ كلَّ فجرٍ وممسى تحيَ في روضةٍ من الاسعادِ

وقال في « الحياة » :

أعيشُ وأعلمُ ان الردى سيعدو عليَّ وما من نجاةِ
وكل اوانٍ يمرُّ عليَّ يسيِّر جسمي الى الحفرات
واني احبُّ الحياةَ وفرضٌ على الناس اجمع حبُّ الحياةِ
فان كان جسمي يذوق مماتاً فروحي من النَسَمِ الخالداتِ
لذلك ابذل جهدي لتحيا اذا ما استقرَّ برمسٍ رفاتي
فأنحو سبيل التقى في شؤوني فيبقي حياتيَ حسنُ تقاتي
ومَن يتقي الله يُلفي ولا ريـ ـب بدءَ الحياةِ بيوم المماتِ

وقال في « الجمال » :

انا ان كنتُ جميلاً منظراً كان سؤلي نيل ممدوح الخصالِ
ذاكَ فرضٌ ليتمَّ الحسنُ لي فاكتمال الحسن في حسن الخلالِ
واذا كنتُ قبيحاً منظراً كان بي الأولى اطّلابي للكمالِ
بعفافٍ وأناة وندى واتضاع وبلطفٍ كالزلالِ
لأُميطَ القبحَ عن جسمي بما زان خوفُ الله روحي من جمال

انباء مختلفة

التاريخ يعيد نفسه

(حول حادثة مدام كايو)

حامت اقلام الكتاب حول حادثة مدام كايو قاتلة المسيو كلميت مدير جريدة الفيغارو الفرنسوية ، فروت جرائد اوروبا ان امثال هذه الجناية قد وقعت في فرنسا في السنين الماضية، والى القرّاء تاريخ بعض الجنايات النسائية الشبيهة بحادثة مدام كايو

الحادثة الاولى — في عام ١٧٨٤ قتلت مدام كلوفيس هوج الشاعر والمبعوث رجلاً من رجال الاعمال في دار نظارة العدلية يُدعى موران وذلك لانه طعن فيها وفي زوجها. الحادثة الثانية — في عام ١٨٨٤ اطلقت سيدة ست رصاصات على كاتب وكالة الاستعلامات وكان يتبعها لمخادعتها والقذف في حقها فبرّأت المحكمة ساحتها. الحادثة الثالثة — في عام ١٨٩٨ قذف صاحب جريدة لانترن في نائب وامرأته فذهبت المرأة الى ادارة الجريدة فلم تجد المدير ووجدت سكرتير التحرير فأفرغت فيه رصاص مسدّسها فمكث هذا الجريح بين الحياة والموت عدّة اشهر ثم قُدّر له ان يعيش وهو لا يزال حيّاً يُرزق يروي لاصحابه تفصيل تلك الحادثة.

الحادثة الرابعة — في عام ١٩٠٠ قتلت مدام بولنيه قرينة نائب (عُين فيما بعد في مجلس الاعيان) الموسيو اوليفيه سكرتير تحرير جريدة الانترنيجان لاعتقادها انه كتب مقالة طعن بها فيها وفي زوجها. وجاءت اليوم مدام كايو تكمل هذه الحلقة النسائية التي لا نعلم متى تنتهي ...

ميزانية البلقان

وُضع تقرير مفصل بالمساحة وعدد السكان لكل من حكومات البلقان كما ترى في هذا الجدول :

(١) رومانيا — كانت مساحتها قبل الحرب ١٣١٣٥٣ كيلومتراً مربعاً وعدد

سكانها ٧٢٤٨٠٦١ . فاكتسبت من بلغاريا ارضاً مساحتها ٧٥٢٥ كيلومتراً مربعاً وعدد سكانها ٢٨٥٧٥٧ واصبحت مساحتها الان ١٣٨٨٧٨ وعدد سكانها ٧٥٣٣٨١٨

(٢) بلغاريا -- كانت مساحتها ٩٦٣٤٥ وعدد سكانها ٤٣٢٩١٠٨ فخسرت ٧٥٢٥ كيلومتراً مربعاً من الارض و٢٨٥٧٥٧ من السكان . وا كتسبت ٢٦٢٥٧ ك.م و ٧٠٩٦٤٦ من السكان . فاصبحت مساحتها ١١٢٠٧٧ كيلومتراً مربعاً وعدد سكانها ٤٧٥٢٩٩٧

(٣) سربيا — كانت مساحتها ٤٨٣٠٣ ك.م وعدد سكانها ٢٩٥٧٢٠٧ . فاكتسبت ٣٩٠٤٧ ك.م و ١٢١٠٠٠٠ من السكان . واصبحت مساحتها ٨٧٣٥٠ وعدد سكانها ٤١٦٧٢٠٧

(٤) اليونان — كانت مساحتها ٦٤٦٥٧ ك.م وعدد سكانها ٢٧٣٢٩٥٢ . فاكتسبت ٥٦٦١١ ك.م و ١٦٢٠٠٠٠ من السكان . واصبحت مساحتها ١٢١٢٦٨ وعدد سكانها ٤٣٥٢٩٥٢

(٥) الجبل الاسود — كانت مساحته ٩٠٨٠ ك.م وعدد سكانه ٢٨٥٠٠٠ . فا كتسب ٥٨٧٦ ك.م و٢٣٠٠٠٠ من السكان . واصبحت مساحته ١٤٩٥٦ ك.م وعدد سكانه ٥١٥٠٠٠

(٦) البانيا — مساحتها ٣٢٠٠٠ ك.م وعدد سكانها ٨٨٠٠٠٠

(٧) تركيا اوروبا — مساحتها بعد الحرب البلقانية الاولى بمقتضى معاهدة لندن ٩١٦٨ ك.م وعدد سكانها ١٦٢٣٠٠٠ . ومساحتها بعد الحرب الثانية ٢٥٣٦٩ ك.م وعدد سكانها ٢٣٤٨٠٠٠

السوريون في الارجنتين

يؤخذ من تقرير عام رفعه حضرة قنصل الدولة العثمانية في بونس ايرس عاصمة الارجنتين ان عدد السوريين في تلك الجمهورية هو زهاء ٨٠ الفاً منهم ٥ آلاف فاعل و١٥ الف بائع متجوّل و ٣٥ الف عامل ومستخدم و ١٠ آلاف تاجر و ١٥ الفاً بين شيوخ واولاد و ٥ آلاف امرأة

اثار ادبية

الصفاء — جريدة ادبية سياسية جامعة تصدر في عبيه (لبنان) مرتين في الاسبوع وقد بلغت الان سنتها السابعة عشرة وهي مثابرة على ما عوَّدت قرَّاءها من نشر كل نفيس من المباحث الادبية والسياسية والنبذ الرائقة مما نالت به الشهرة السائرة بين الصحف. فنثني الثناء الطيب على همة محرّرها الفاضل الالمعي امين بك ناصر الدين المشهور بطول باعه في اساليب الكتابة وسائر فنون الادب ونتمنى للصفاء مزيد الاقبال والانتشار

الاخاء — دخلت هذه المجلة اللطيفة في السنة الخامسة من حياتها وهي على ما عُهد فيها من نشر النبذ الرائقة والفصول المستملحة والمواضيع المبتكرة مما اصبحت بشهرته في غنىً عن الاطالة في وصفه وتقريظه فنهنىء منشئها الصحافي المتفنن جبران افندي مسوح بما اوتيه من سلامة الذوق وعلوّ الهمة والثبات ونرجو لمجلته كل رواج واقبال

القرن العشرون — عنوان جريدة حُرَّة من ارقى الجرائد العربية في بلاد المهجر، وصاحبها لبيب افندي الرياشي من اقدر الصحافيين واكثرهم تفنناً واغزرهم مادة. وقد اجتازت جريدته عامها الثالث ودخلت في الرابع وهي تتسع نطاقاً وتزداد انتشاراً، وفي كل عدد منها شيء كثير مما تلذ مطالعته وتغزر فائدته. فنتمنى «للقرن العشرين» ان يظلّ سائراً في سبيل النجاح سيراً حثيثاً

المنتدى الادبي — المنتدى الادبي هو جامعة الشبيبة العربية في الاستانة، ورئيسه هو حضرة الاريحي الفاضل عبد الكريم افندي قاسم الخليل المشهور بتفانيه في خدمة الجامعة العربية وتوثيق روابطها. وقد اصدر هذا المنتدى في السنة الماضية مجلة مصوّرة باسم «لسان العرب» نالت استحسان جمهور غفير من القراء. وقد انتهت سنتها الاولى ودخلت الان في سنتها الثانية باسم المنتدى نفسه وهي في احسن حلة من الاتقان وفيها عدة مقالات وقصائد لجمهور من الكتبة المجيدين. فنهنىء رجال المنتدى الادبي بما بلغوه من طيب الاحدوثة ونفوذ الكلمة في عاصمة السلطنة وندعو لهم بالنجاح المتواصل ولمجلتهم الغراء بسعة الانتشار

صدى الخاطر -- اطرفنا حضرة الشاعر المطبوع والكاتب البليغ امين بك ناصر الدين محرّر جريدة الصفاء الغراء بنسخة من ديوان له سماه بصدى الخاطر ضمنه كل ما يروق النفس ويشرح الخاطر من القصائد الرائقة والمقطعات الشائقة في اغراض شتى كالاجتماع والانتقاد والاخلاق وشكوى الزمن والحكم والشعر القصصي والخيالي والوصفي والغرامي والفكاهي وقد نشرنا في هذا الجزء من المجلة قصيدة من هذا الديوان عنوانها امام المرآة لتكون دلالة على امثالها من هذه المحاسن ولعلنا ننشر منه غير ذلك في اجزاء اخرى ٠ والديوان في ٢١٥ صفحة وهو جيد الورق متقن الطبع ٠ فنحث الادباء والراغبين في مطالعة اطايب الشعر على اقتنائه ٠ وهو يطلب من ادارة « الصفاء » في عبيه ومن المكتبة الاهلية في بيروت وثمنه ١٢ غرشاً خلا اجرة البريد

البيان الصراح عن نذر يفتاح — يفتاح هو احد قضاة الاسرائيليين وابطالهم عاصر عالي الكاهن وصموئيل النبي وكان قائداً للاسرائيليين في محاربة بني عمون وقد نذر قبل خروجه الى الحرب ان يقرّب للرب محرقة كلّ خارج يخرج من باب بيته للقائه اذا عاد منتصراً ٠ وقد قهر العمونيين وضربهم ضربة عظيمة جداً ٠ وبينا كان عائداً الى بيته خرجت ابنته للقائه بالدفوف والرقص وكانت وحيدة له ٠ فانقبضت نفس يفتاح ولكنه لم يلبث ان اتمّ بها النذر الذي نذره ٠ —هذه الحادثة بكل تفاصيلها اخذها حضرة الشاعر الناثر المشهور امين افندي خيرالله ونظمها شعراً فجاءت في مئة واربع صفحات مبوّبة احسن تبويب ومشروحة احسن شرح ٠ وقد قرأنا اكثر فصولها فاذا هي ككل ما ينظمه امين افندي من حيث المتانة وجودة السبك والتفنن والإبداع ٠ فنشكر لحضرته هذه الطرفة النفيسة ونحضّ جمهور المتأدبين على اقتباس فوائدها

دموع الاسى — جاءنا بهذا العنوان كتيب صغير لحضرة الشاعر الناثر المجيد الياس افندي الظاهر جمع فيه ما قيل في رثاء وتأبين شهيدي الطيران المغفور لهما فتحي وصادق ٠ وهو مطبوع على نفقة حضرة الفاضل توفيق افندي كبوش صاحب مكتبة التوفيق في بيروت ويطلب منه ومن ادارة هذه المجلة وثمن النسخة بشلك واحد ٠ فنحث الادباء على اقتنائه كتذكار للشهيدين

اخوية اغاثة المسكين الارثوذكسية — في عكا

اهدت الينا هذه الجمعية الراقية ميزانيتها لسنة ١٩١٣ فتبينا فيها آثاراً شريفة ومآثر غراء لا يكبرها احد على موسسيها الافاضل واعضائها الكرام فنشكر لحضراتهم هذه الخدمة النبيلة ونسأل لهم كل توفيق ونجاح في خدمة القريب



اهداء المجلة

من حضرات الافاضل :

(٤٩ و ٥٠) الاستاذ حنا افندي الحجه (فيرّو — روسيا) الى اخيه الخواجا ناصر الحجه (الناصرة) والخواجا ميخائيل الحجه (السلط)

(٥١) الاستاذ يوسف افندي ابرهيم (القدس) الى صهره الاستاذ الياس افندي سليم (جفنا)

(٥٢) الخواجا ياني حنانيا (مولشين — شيلي) الى ابن عمه الخواجا بنايوت الياس (كاموسيم — سيارا — البرازيل)

(٥٣) الخواجا يوسف جورجي (سانتياغو دي شيلي) الى والده الخواجا جورجي الخوري عيسى (جفنا)

(٥٤) الخواجا حنا عوده (سانتياغو دي شيلي) الى الخوري عوض القسيس (جفنا)

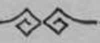
(٥٥) الخواجا صقر صالح السخل (سانتياغو دي شيلي) الى صهره الخواجا شحاده خضر (القدس)

(٥٦) الخواجا انطون عيسى سلامه مره (سانتياغو دي شيلي) الى اخيه ابرهيم افندي مره (بيت لحم)

(٥٧) ظاهر افندي ابي عسلي (دمشق) الى لطفي افندي سيوفي (دمشق)

(٥٨) بنيامين افندي باصوص (اللاذقية) الى اخيه حنا افندي باصوص (فلور يسوال — تكساس — الولايات المتحدة)

فنشكر لهؤلاء المناصرين الافاضل غيرتهم الوطنية وادبهم الجم



إعراض القيصر عن زوجته وسعيه في سبيل مرضاتها هي ، وقد تحققت انها لا تلبث ان تدرك ضالتها ، فتخدم بذلك نفسها ومصلحة شعبها ، وتنتقم في الوقت نفسه من القيصرة على ما تفوّهت به من الكلام الجارح في حقها

وكان لفورت يعلم ما تضمره حنة ، فسُرَّ لتصميمها على مرافقة الملك ، وسُرَّ بالاكثر لِما رآه في وجه الملك من الارتياح لذلك ، فقال له — اما انا فاستودعك الله الان يا مولاي ، اذ لا بدَّ من ذهابي في هذه الساعة لأحشد جيشك الصغير واوافيك به سريعاً الى الدير

قال ذلك وخرج . وخرج بطرس في اثره الى حيث كان الجنديان الاسترلتسيَّان ، فقابلهما احسن مقابلة وعرف منهما تفصيل ما حدث من فتنة الاسترلتس ، وقد شكر لهما اخلاصهما له ووعدهما بكل خير ودعاهما للمسير معه الى الدير

فسُرَّ الاسترلتسيان غاية السرور وشكرا للملك عطفه واحسانه ، وقد دخلا منذ ذلك الحين في خدمة بلاطهِ ولبثا امينين في خدمتهما له الى آخر ايامهما . وكان يُقال لاحدهما ميخائيل فيوكتيستوف وللآخر ديمتري ميلكوف

وعاد بطرس بعد مقابلة الاسترلتسيين الى مخدعه ، وكانت حنة مونس لا تزال بانتظاره ، فقال لها — قد أعدَّ كل شيء ايتها العزيزة ، وركبت والدتي وزوجتي مركبةً لتقلّهما الى الدير ، فانضمّي انتِ ايضاً اليهما

فاجابت — كلا ايها الملك . فانا لا اريد ان اضايق زوجتك ووالدتك في مركبتهما ، وقد آليت ان لا افارقك ما دمتَ عرضةً للخطر ،

فسأسير الى جانبك على جوادي

فنظر اليها بطرس نظرة الاعجاب وقال – ولكنني اخشى ان يجهدك التعب ، فقد سرتِ معظم هذا الليل على الجواد ، وتريدين الان ان تسيري الى الصباح كذلك ؟

قالت – نعم ، ولا تخشَ عليَّ بأسًا ، لان قيامي باخلاص الخدمة لك يسهّل امامي كل مشقة ويهوّن كل عناء

قال – اذًا هيًّا بنا !

ولم يكن الا القليل حتى خرج بطرس من القصر والى جانبه حنة مونس وفي اثرهما مركبة الملكتَين ووراءهما سائر اهل القصر ، وسار الجميع في جنح ظلام ذلك الليل في طريق الدير



الفصل السادس عشر

فشل الاميرة

وصل بطرس وحاشيته الى دير الثالوث الاقدس الساعة السادسة صباحاً ، فاستقبله رئيس الدير وسائر الرهبان بكل حفاوة وترحاب وقاموا بخدمته والاستعداد للدفاع عنه احسن قيام

وكان شاكلوفيطي قد وصل بجيشه في اواخر ذلك الليل الى قرية بربوبراجينسكويه ، وكان اكثر الاسترلتس الذين معه في حالة السكر الشديد . فتقدم شاكلوفيطي وقرع باب القصر وأعلن لمن فتح له من

الخدام الباقين هناك انه آتٍ برجاله بامرٍ من الاميرة صوفيا ليقوموا على حراسة الملك

ثم دخل وتبعه بعض رجاله ، ولكنهم لم يلبثوا ان تحققوا خيبة آمالهم ، فعضَّ شاكلوفيطي شفته حتى ادماها ووقف حائرًا لا يدري ماذا يفعل ، وقد تأكد له ان بطرس قد علم بالمكيدة فلاذ بالفرار ، وان الشعب سيعلم بما جرى فيزداد محبةً لبطرس وكراهةً لشقيقته ، وتصبح القوة اخيرًا في جانب بطرس ، فيقهر شقيقته ويقضي على امالها ورجالها

وبعد ان فتش شاكلوفيطي مخادع القصر عاد برجاله الى موسكو وهو يحسب لنجاة الملك الف حساب

وما كاد هذا الخبر يشيع في موسكو حتى اضطرب له الاهلون اضطراباً عظيماً . غير ان اعوان الاميرة انبثُّوا بينهم يسكِّنون الخواطر الهائجة بما كانوا يلفِّقونه من الاخبار . ونشر شاكلوفيطي رجال الاسترلتس في كل مكان من العاصمة لارهاب الناس وحفظ السكينة . وكان ذلك أدعى الى نفور الشعب من الاميرة صوفيا ورجالها وعَقد القلوب على محبة بطرس والرغبة في نصرته ، وكانوا قد كرهوا الاميرة لكثرة دسائسها وفظائعها وتهتكها ، وسئمت نفوسهم هذه الاحوال والاهوال

وكان بطرس بحال وصوله الى الدير قد اخذ يبعث بمنشوراته الى موسكو والى جميع اطراف البلاد يدعو بها الشعب الى الاعتراف به دون سواه . وقامت صوفيا تبعث بمنشوراتها كذلك وتتهدَّد كل مَن يخالف امرها بالموت ، وقد افرغت جهدها في اجتذاب الرعية اليها فلم تنجح بل كانت كلما اجتهدت في ذلك يزيد كره الشعب لها واخلاصه

لبطرس . وكان الناس يتقاطرون الى دير الثالوث الاقدس من كل جهة بالرغم عن اوامر الاميرة للدفاع عن الملك والتطوّع في خدمته لقهر شقيقته وخلعها

ولما رأت صوفيا ذلك أُسقط في يدها وأخذت تفكر في طريقة للمصالحة مع اخيها ، ولهذه الغاية انفذت اليه بعض اعوانها من النبلاء ليتداركوا الامر بينهما ، فلم ينجحوا ، فأرسلت في اثرهم البطريرك يواكيم على امل ان يصغي بطرس الى ارشاداته ويرضى بالمصالحة ، غير ان البطريرك ما كاد يخرج من موسكو ويبلغ الدير حتى تنفس الصعداء وأصبح من ذلك الحين من اخصّ رجال بطرس واعوانه ، وقد اشتدّ بذلك ازر بطرس ومال اليه كل الشعب واكثر النبلاء وفريق عظيم من الاسترلتس

وكان الجنرال بتريك غوردون قائداً لاحد فيالق الجيش الروسي وفي فيلقه جمهور من الضباط والجنود الاجانب . وقد رأينا من الفصول السابقة ان غوردون كان يميل الى بطرس كل الميل ويريد الانتصار له على شقيقته . فلما جرت حادثة فرار الملك الى الدير استدعت الاميرة صوفيا جميع قواد الفيالق وفي جملتهم غوردون واوعزت اليهم ان لا يفارقوا العاصمة ولا يعملوا بغير ارادتها ولا يتداخلوا في شأن الخصومة الناشبة بينها وبين اخيها . غير ان ذلك لم يفدها شيئاً لان الجنود والاسترلتس كانوا يهربون من موسكو عشرات ومئات وينضمون الى بطرس ، حتى صار لديه منهم وممن تطوّع من الشعب جيش كثيف ، فضلاً عن جيشه الصغير الذي كان يقوده لفورت

وكان اليأس قد ادرك الاميرة صوفيا ، فعزمت على الذهاب بنفسها

الى الدير على امل ان يرثي بطرس لحالها فيعفو عنها وعن اعوانها ، ولكنها ما كادت تخرج من موسكو وتسير مسافة قصيرة حتى وردتها اوامر اخيها بالرجوع الى موسكو لانه يأبى مصالحتها ولا يريد ان يراها ، فعادت صوفيا تتعثر باذيال الخيبة وقد ضاقت الدنيا في وجهها . والذي أفعم نفسها حزناً ورود اوامر بطرس اليها بتسليم شاكلوفيطي وبضعة اشخاص من اخصائها وهم الذين ثبتوا على ولائها ولم يتنحوا عنها في نكبتها . وكان هولاء الاخصاء قد علموا بهذه الاوامر ، ففرّ بعضهم الى البلاد الاجنبية ، وترك البعض الآخر بلاط الاميرة واختبأوا في بعض الجهات البعيدة عن العاصمة ، ولم يبقَ بازاء الاميرة من اعوانها الا الامير فاسيلي غوليتسن والقائد شاكلوفيطي . وكان رجال بطرس قد سدُّوا على اعوان الاميرة مسالك النجاة وقبضوا على كثيرين منهم واستاقوهم الى الدير

وفي الرابع من شهر ايلول ارسل بطرس بلاغاً الى جميع القواد والضباط الاجانب المستخدمين في الجيش الروسي بالحضور اليه الى الدير . وكان الجنرال غوردون زعيمهم وقائدهم ينتظر مثل هذا البلاغ منذ زمان ، فجمع رجاله في الحال وتوجه بهم الى بطرس ، ولم تجسر الاميرة صوفيا او مستشارها الامير فاسيلي غوليتسن ان يحولا دون ذلك

واخيراً في ٧ ايلول سافر الامير فاسيلي غوليتسن بنفسه الى الدير . واضطرت صوفيا الى تسليم شاكلوفيطي ايضاً لتحافظ بذلك على حياتها ، فاستلمه رجال بطرس واقتادوه الى الدير مكبَّلاً بالحديد مع جمهور من رجال الفتنة من الاشراف والاسترلتس وبينهم الاسترلتسي باسيل الذي دعا بطرس دجَّالاً . ولم يبقَ للاميرة مَن تعتمد عليه من رجالها ، فباتت

تنتظر نصيبها من العقاب

وحكم بطرس على الامير فاسيلي غوليتسن واسرته بالنفي بعد تجريده من القابه ورتبه، ولم يحكم عليه بالاعدام اكراماً لابن عمه الامير بوريس غوليتسن الذي كان من اقرب المقرّبين الى بطرس ومن أصفى اعوانه ومستشاريه

***

ولما تمّ هذا النصر لبطرس ونفذت كلمته في العاصمة وفي سائر البلاد ولم يبقَ من يجسر على مخالفته من القواد والرعية، ألَّف لجنة من رجاله الاخصاء وفوّض اليهم امر استنطاق رجال الفتنة وتعذيبهم بأهول الذرائع والحكم عليهم. ثم أمر فأُخرج اولئك المجرمون من الدير وسيقوا الى سجن العاصمة، وكانوا جمهوراً غفيراً يخفرهم فيلق كامل من الجيش الذي كان محتشداً في الدير. وقد عُين اليوم الحادي عشر من ايلول موعداً لانفاذ الحكم فيهم في ساحة الكريمل بالقرب من القصر الملوكي، ليكون ذلك على مشهد من الاميرة صوفيا نفسها

وتفنَّن رجال اللجنة في طرق تعذيب رجال الفتنة هؤلاء على ضروب شتى، فكانوا يجلدونهم بالسياط ذات السيور الضخمة والاسلاك الحديدية المفتولة حتى تسيل دماؤُهم ويصير جسم كل منهم كأنه جراحة واحدة، او يغرزون في اجسام بعضهم قِطعاً من القصب محدّدة الاطراف في غلظ الاصبع، او يقطعون قِطعاً من لحومهم، او يبضعون في ابدانهم بضعات عميقة ويضعون فيها فتائل يوقدونها ايقاداً بطيئاً، الى غير ذلك من الطرق الهائلة التي تقشعرّ منها الابدان وترهق النفوس

الفصل السابع عشر

﴿ هيام الملك ﴾

وفي مساء اليوم المضروب لانفاذ الحكم في المجرمين جاء بطرس الى موسكو متنكراً بلباس ضابط الماني وفي صحبته نفرٌ من رجاله وفي جملتهم الفتى بولس كارنين رفيقه في كوكوي . ثم دخل وبولس الى السجن ليرى بعينيه الطرق المتخذة للتمثيل بالمجرمين وأخذ يجول بينهم ويأمر بتشديد عذابهم ويجري بعض ذلك بنفسه تشفياً وانتقاماً منهم

ثم خرج من السجن وقد طابت نفسه فركب ورفيقه جواديهما وخرجا من موسكو وحدهما وراحا ينهبان الارض الى جهة كوكوي

فقال بولس — واين تريد ان تبيت هذه الليلة يا مولاي ؟

قال — في منزل مونس ، فقد سئمت نفسي كل هذه الاهتمامات والاضطرابات المتواصلة ، واريد الان ان ازور حنة لأُسرّي عندها بعض ما بي

وما زال الاثنان يجدّان في السير حتى بلغا بلدة كوكوي وترجلا امام باب منزل يوحنا مونس . وقرع بولس الباب فجاءت خادمة مسنّة وفتحته ولكنها تراجعت الى الوراء مذعورة حينما ابصرت بطرس وقالت — الملك ! الملك !

فصاح بطرس غاضباً — اصمتي ايتها الغبية . فما انا عندكم الا ضيف بسيط .. والان أخبريني هل صاحب المنزل هنا ؟

فقالت الخادمة وهي ترتجف — كلا يا سيدي . فهو منذ صباح

امس في موسكو ولا يعود الينا الا غداً

قال – وابنته حنة ؟

قالت – انها في المنزل

فقال الملك لبولس – خذ الجوادين واذهب الى حيث تشاء وعد اليَّ قبل فجر الغد

فحيَّا بولس وسار بالجوادين الى منزل مربيته يوليا فوغل ، وصعد بطرس الى المنزل . فاستقبلته ماتريونا اخت حنة ، وكانت متزوجة برجل الماني من اسرة تدعى بالك ، وقد وُجدت تلك الليلة عند اختها بسبب غياب والدهما في موسكو . والظاهر ان ماتريونا لم تكن تجهل علاقة اختها بالملك ، فلما أبصرته داخلاً برقت اسرَّتها وقامت للاحتفاء به وهي تقول – اهلاً بالضيف العزيز ! اهلاً بالبطل الظافر والملك القاهر ! . .

فقطب بطرس حاجبيه وقاطعها قائلاً – حسبكِ من مثل هذا الكلام ياماتريونا واخبريني فوراً اين حنة ؟ فهل هي نائمة ؟

قالت – نعم يا سيدي ، اذ اي فائدة في السهر لفتاة مثلها فى مقتبل الصبوة ، فهي نائمة الان في سريرها مورَّدة الخد باسمة الثغر لانها ترى في احلامها بطلَها العزيز

قال – مَن ؟

قالت – بطلها ! افلا تعلم يا سيدي ان لكل حسناء بطلاً تسامر شبحه في تخيلاتها وتقف له قلبها في حياتها ؟

قال – ومَن هو بطل حنة ؟

قالت – ومن اين لي ان اعرف ذلك ايها الملك العظيم وهو سرٌّ

قلبها الذي تصونه وتحرص عليه ! . .

قال—ولكن لا بدَّ لي من معرفة هذا البطل واكتشاف هذا السرّ . فاذهبي أيقظي حنة لاني اريد ان أراها

وما كادت ماتريونا تنهض حتى فُتح باب آخر في الغرفة التي كانا مجتمعين فيها ودخلت حنة بهيئتها الملكية وقد ارتدت ثوباً ناصع البياض يحاكي لون جسمها وسدلت شعرها الحالك الطويل على كتفيها فظهرت كأنها حورية من الحور العِين

فلم يتمالك بطرس نفسه عند دخولها ان وثب اليها ، فأخذ بيدها وأجلسها بازائه وهو يرسل اليها نظر الافتتان متأملاً في عينيها النجلاوين وثغرها البسَّام ورشاقة قدّها الفتَّان ، وقد هاج فيه كامن الوجد والهيام ، فالتفت الى ماتريونا وقال — اذهبي انتِ وهيئي لنا آنية الشراب وأعدّي شيئاً نأكله ودعينا هنا منفردَين لاني اريد مكاشفة حنة بامر ذي بال لا ينبغي لاحد غيرها ان يسمعه

فنهضت ماتريونا في الحال وخرجت وهي تخفي في صدرها سروراً عظيماً . ولبث بطرس وحنة جالسين ينظر احدهما الى وجه الآخر

فقالت حنة بعد صمت قليل — لم اكن انتظر مجيئك ايها الملك في مثل هذا الوقت . فمتى خرجتَ من الدير ، وماذا جرى لاهل الفتنة ؟

قال — لم اخرج الا اليوم ، ولم يكن خروجي الا لاراكِ وأشكو اليكِ ما الاقيه من لواعج الحب وتباريح الوجد . . واما اهل الفتنة فقد نالوا نصيبهم من العذاب وقد شهدتُ بنفسي قبل مجيئي الى هنا شيئاً من عذابهم في السجن وغداً موعد عقابهم

قالت — واختك ؟

قال — انها في قصرها تنتظر نصيبها ، فسأجعل نهار الغد حدًّا لبغيها وطغيانها ، فاكيل لها صاعاً بصاع واحرمها كل ملذات هذه الحياة . . . والان دعينا من ذكرها لانه يقبض نفسي ويضغط على صدري . . وهاتي حدثيني بما سمعتهُ الان من شقيقتكِ

قالت — وماذا سمعتَ ؟

قال — قالت ان لكل فتاة حسناء نظيركِ بطلاً تناجيه في احلامها . . فأُريد ان أعرف مَن هو هذا البطل الذي تناجيه انتِ ؟

فابتسمت حنة ولم تُحر جواباً

فأَمسك بطرس بذراعها وقال — انتِ تعلمين يا حنة اني قبل ان عرفتكِ كنتُ عائشاً بلا حب ، ولكنني لم ألبث ان رأيتكِ واحببتكِ بكل ما في جسدي من الحياة وما في حياتي من قوة الحب ولستُ براجع عن هواي حتى اناله ولو كلفني بذل حياتي . . فأفصحي لي الان عما في ضميركِ وقولي من هو هذا البطل التى ترينهُ في احلامكِ ؟

فعلت وجه حنة حمرة الحب وقالت بكلام يسيل عذوبة — لئن لم اجبك بلفظي فقد قرأتَ انتَ الجواب في عينيَّ وعملي

قال — بل اريد ان أسمع ذلك من فيكِ

قالت — اذا رأيتَ فتاةً تسعى في اعماق الليل وتحت اشد الاخطار لتنقذ رجلاً من الموت ، فما هي العواطف التي تدفعها الى ذلك ،

وكان في كلام حنة سحر وفي منطقها كهربائية فجذبها بطرس الى صدره واخذ يغطي وجهها بالقُبل الحارَّة ويقول — انا اذًا هو بطلك ! انا

اذاً هو الحبيب الذي اصطفاه فؤادك !

فأبعدته حنة عنها وقالت — ولكن ما هذا ؟ اني ارى على ثيابك بعض قطرات من الدم ، وهي بلا شك من دم بعض المجرمين الذين شهدت التمثيل بهم في السجن .. فهيّاً بنا الى مخدعي لتغير ثيابك وتغسل غبار السفر عنك ...

الفصل الثامن عشر

بولس كارنين

كانت يوليا شارلوطا فون فوغل تحب ربيبَيها ميخائيل وبولس كارنين كما تحب الوالدة اولادها ، وقد ربّتهما طفلين صغيرين الى ان شبّاً . وكان لها ولدان صغيران بنت وصبي كانت تعيش واياهما في كوكوي وتنفق عن سعة

ولما جاء بولس كارنين الى منزلها ، بعد فراقه لرفيقه الملك ، استقبلته يوليا بغاية الابتهاج والحفاوة وأدخلته الى مخدعها وهي تسأله عن احواله واحوال اخيه . وكان بولس يجيبها وهو مشرّد الافكار مضطرب البال ، وقد لحظت يوليا منه ذلك فسألته عما به ، فقال بصوت يرتعش — اني اكاد اشيب من هول ما رأيتُ

فقالت — وماذا رأيتَ يا ولدي ومن اين انت آتٍ الان ؟

قال — من السجن ، وقد كنتُ هناك مع القيصر ورأيتُ من الاهوال ما لن انساه طول حياتي

فبهتت يوليا وقالت — وما ذاك ؟

قال—لم يعد الي رشدي بعد .. حقاً انه بطل عظيم لم تلد النساء مثله ولا يمكن ان يكون بين رجال التاريخ مَن يشبههُ عزيمةً وقوةً واخلاصاً

قالت — ومن تعني بهذا الكلام يا ولدي ؟ ومَن هو هذا البطل الذي أُعجبتَ به كل هذا الاعجاب ؟

قال — هو شاكلوفيطي .. نعم هو هذا القائد الباسل الذي ما برحوا يسومونه جميع اهوال العذاب ليستطيعوا ان يكرهوه على الاقرار او يسمعوا منه ما يدلُّ على ان الاميرة صوفيا هي التي امرته بالهجوم على قرية بريوبراجينسكويه للفتك بالملك واقربائه واخصائه

قالت — وماذا كان يقول وهو تحت العذاب ؟

قال — انه لم ينبس ببنت شفة وقد طالت مدة تعذيبه ' حتى ان الذين في جهنم النار لا يُعرَّضون لمثل اصناف العذاب التي عُرّض هو لها ' فقد شووا اطرافه بالنار ' وغرزوا في اصابعه تحت الاظافر قطعاً رقيقة حادة من الحديد ' وقطعوا قطعاً من لحمه ' واستلّوا بعض عظامه ' وجلدوه بالسياط حتى صار جسمه كلهُ عَلقة من الدم ' ومع ذلك فهو لم يقل شيئاً ' ولكنه عندما تحقق وجود القيصر اخذ يلعنه في وجهه ويشيد بذكر الاميرة صوفيا ويعدّد امجادها ومفاخرها ' وما زال كذلك الى ان أُغمي عليه من كثرة ما نزف منه من الدم . وغداً سيقتادونه الى النطع لانفاذ الحكم فيه على مرأى من الاميرة نفسها

قالت — غداً ؟

قال — نعم ' ولهذا السبب جئتُ والقيصر الى كوكوي لنبيت فيها ليلتنا ونتوجه في الغد الى موسكو

قالت — واين القيصر الان ؟

قال — في منزل مونس

فهزّت يوليا رأسها وقالت — ان بطرس لا يعرف حدًّا لهواه ، فقد تصبَّتهُ حنة مونس الى درجة الجنون ، فمسكينة زوجته القيصرة .. ان حياتها ستكون امرّ من العلقم

قال — ولكنه مَدين لحنة بحياته، فقد خاطرت بنفسها مخاطرة جسيمة لانقاذه مما كان ينتظره من هجوم الاسترلتس لاغتياله

قالت — أصبتَ ، ولكنه يستطيع ان يكافئها على ذلك احسن مكافأة ، لا ان يجعلها خليلةً له وينسى في سبيل هيامه بها نفسه وزوجته وتاجه ووطنه ... وقد انقذته انت مرةً يوم كان في كوكوي وهجم الاسترلتس عليه وهو في منزل القسيس ، فماذا فعل لك ؟

قال — انه كافأني واجزل المكافأة ، فقد جعلني من حاشيته الخاصة وتناسى جريمة اخي فلم يأمر بالقبض عليه ومحا تهمته

قالت — ولكني اخشى ان يعود فيتذكره وينتقم منه لانه شديد النقمة محب لسفك الدماء

قال — لا اظن ذلك . فقد كان الامير فاسيلي غوليتسن اقرب المقربين الى الاميرة صوفيا واشدّ اعداء الملك ، غير انه لم يعاقبه بالاعدام كما قضى بذلك على غيره ، بل اكتفى بنفيه الى مكان قصيّ ، وهو لم يفعل ذلك الا اكراماً لصديقه الامير بوريس غوليتسن ابن عم فاسيلي..

وبعد حديث قصير في مواضيع شتى نهض الاثنان فرقد كلٌّ منهما في سريره . وما بزغ فجر اليوم التالي حتى كان بولس واقفاً بالجوادين

امام منزل مونس . ولم يطل انتظاره حتى اقبل عليه بطرس ووجهه يطفح سروراً وهناءً . ثم ركب الاثنان وسارا في طريق موسكو

وكان الملك قبل ان فصل عن منزل مونس قد التفت الى احدى نوافذه العليا ، والتفت بولس ايضاً فرأى حنة مونس واقفة في تلك النافذة تنظر الى الملك وتشيّعه بابصارها . ثم رفعت منديلاً الى عينيها ومسحت به دموعاً كانت تترقرق فيهما . .

الفصل التاسع عشر

﴿ العقاب ﴾

ما اشرقت شمس الحادي عشر من شهر ايلول سنة ١٦٨٩ حتى كانت ساحة الكريمل في موسكو غاصّة بجماهير الخلق من سائر الطبقات وقد احتشدوا جميعهم هناك ليشاهدوا عقاب المجرمين وهم بين شامت بهم ومتأثر لبلواهم . وقد أُقيمت في وسط الساحة دكة مرتفعة نصبت فيها المشانق وآلات القتل والعذاب

وفي الساعة المعينة قيد المجرمون من السجن الى محل العقاب يخفرهم الجند ببنادقهم . وقد جُعل القائد شاكلوفيطي في طليعة المجرمين وأُرغم على المسير حافياً وهو مرتدٍ ثوب الاشراف وعلى رأسه قبعة القيادة العليا للجيش

وكان شاكلوفيطي ممتقع الوجه اصفر اللون غير انه سار بجاش ثابت ونفس لا تعرف الخوف ، وقد رفع رأسه ونظر بازدراء الى جماهير

المتفرجين الذين كانوا قبل هذا النهار ينحنون له الى الارض . وسار في اثره رفاقه المجرمون من نبلاء واسترلتس وكلهم موثقو الايدي منكسو الرؤوس . ولم يكن بينهم باسيل الاسترلتسي لان القضاة لم يروا في ذنبه ما يوجب الاعدام ، فاطلقوا سبيله بعد ان ساموه عذاباً اليماً

ولما سكنت الجلبة ووقف المجرمون في اماكنهم رقي احد القضاة محلاً مرتفعاً واخذ في تلاوة الحكم . وكان الجميع يسمعون كلامه كأنْ على رؤوسهم الطير . ولما فرغ جيء بالمجرمين واحداً واحداً ، فكان الجلادون يستلمونهم وينفذون فيهم الحكم بعد ان يعذّبوهم بذرائع شتى ، وقد سلخوا جلود بعضهم وهم احياء ، ومزّقوا اجساد البعض الآخر بالكلاليب ، وجلدوا غيرهم بالسياط حتى فاضت ارواحهم ، وسحقوا آخرين بالدواليب الضخمة ، وقد خوزقوا بعضاً واحرقوا بعضاً وشنقوا بعضاً وضربوا اعناق من كانت جرائمهم اخف من جرائم سواهم . واستمرت مدة العقاب من الصباح الى عصر ذلك النهار ، حتى خارت عزائم الجلادين وكلّت ايديهم عن العمل

***

في هذا الوقت كانت الاميرة صوفيا في مخدع من القصر الملوكي تشرف نوافذه على محل العقاب ، وكان قد صدر امر بطرس الى اهل القصر بارغام الاميرة على البقاء في ذلك المخدع طول مدة العقاب ، فاقامت فيه مكرهة . وكانت تطلُّ من وقت الى آخر على المجرمين وترى بعينيها ما كان يحلُّ بهم من الاهوال والفظائع وتعود الى داخل المخدع فتبكي بكاءً مرّاً . وقد دخلت عليها وهي في تلك الحالة شقيقتها

مرتا واخذت في تعزيتها وتسرية حزنها وكانت تشاركها في البكاء والنحيب

ولما استلم الجلادون شاكلوفيطي ورأته صوفيا شامخاً برأسه شاخصاً ببصره الى نوافذ مخدعها لم تعد تستطيع صبراً وقد وهى عزمها وفارقها جَلَدها فصاحت من فؤاد جريح وسقطت مغشياً عليها . فبادرت مرتا اليها واخذت ترشُّها بالماء والمنبّهات الى ان افاقت ، فعادت الى النافذة لترى ما حلّ بشاكلوفيطي فرأته قد فقد شعوره لكثرة ما حلّ به من العذاب وما سال من جسمه من الدماء ، وقد اقبل الجلادون عليه ينبهونه ليُنزلوا به عذابات اخرى ، وما زالوا يمثلون به حتى فاضت روحه ، وصوفيا تئنّ انيناً موجعاً وتذرف دموعاً بغزارة المطر ، ثم اخذتها نوبة عصبية كادت تودي بحياتها

ولما افاقت رأت في المخدع اخاها بطرس وقد انتصب امامها كمثال الانتقام وهو ينظر اليها بازدراء . فعرتها قشعريرة شديدة وسترت وجهها بيديها . ونظرت مرتا مبهوتة وقد جحظت عيناها

فقال بطرس لصوفيا — هل نَعَم بالك وقرّ بصرك ِ ايتها الشقيقة العزيزة بهذا المشهد الفتّان ؟ وكيف رأيتِ صديقك شاكلوفيطي ؟ حقاً انه بطل باسل ! وحقاً انه قد اخلص الخدمة لكِ الى اخر قطرة من دمائه ولم يذكر سيئة لكِ وهو تحت اشدّ العذاب !

فصاحت صوفيا وهي لا ترفع اليه نظراً — اغرب من امامي يا ابن الناريشكنيين اللئام ، فحسبك ما مزّقتَ به صدري

فقهقه بطرس وقال — عجباً يا صوفيا ، وهل نسيتِ انكِ كنتِ راغبة في مقابلتي ، وقد خرجتِ من موسكو واردتِ المجيء اليَّ الى

الدير ؟ فماذا اردتِ ان تقولي لي وقتئذٍ ؟

فقالت متأففة وعيناها تشتعلان غضباً – لا اريد ان اراك ولا اريد ان اقول لك شيئاً فدعني وشأني

قال – ولكنني جئتُ لاراكِ بعد هذا الهجر الطويل وأُفضي الى جلالتكِ الملوكية بما في نفسي لاني كنتُ احنُّ منذ زمان الى مثل هذه المقابلة السعيدة

فتململت صوفيا في مكانها وقالت وهي في اشدّ حالات الانفعال – قل ما تشاء وأرحني منك ومن هيئتك الممقوتة ، فقد عكَّرتَ عليَّ صفاء ايامي عكَّر الله عليك حياتك بطولها وضربك باشدّ ضرباته

قال – اعلمي اذاً اني لم اعاقب صديقك شاكلوفيطي الا لابهج نفسك ، ولولا ذلك لارسلته الى اقصى البلاد الشمالية او الشرقية كما ارسلت حبيبك فاسيلي ليرعى واياه هناك السمامير والكلاب . .

فقاطعته مرتا بقولها – حسبك من مثل هذا الكلام ، فقد فعلتَ ما فعلتَ وشفيتَ غليل نفسك اللئيمة ، فماذا تريد بعد ؟

فالتهب بطرس من الغيظ والحنق وقال – وانتِ وما شأنك ايتها الحية الرقطاء ! فهل يؤلمك ان ينال صوفيا العقاب دون ان ينالك منه نصيب ؟

قالت – نعم لانها شقيقتي من اب واحد وام واحدة ، فالذي تريد ان تفعله للواحدة افعله للاخرى ايضاً

قال – ليكن كما تريدين ، فاستعدا اذاً لدخول الدير معاً فلعله يرجع اليكما الافكار الثاقبة

قال ذلك وخرج . ووثبت مرتا الى شقيقتها تعانقها وهي تبكي وتقول – أهذه هي نهاية حياتنا ايتها الشقيقة العزيزة ؟

فتجلّدت صوفيا وقالت – بل هي بداءتها . . ان بطرس لم يحكم عليَّ بالاعدام لانه يجهل قوتي ولا يدري مَن انا ، فلا تجزعي يا مرتا ، وثقي باني وانا في الدير سأحاول الانتقام منه جزاء ما جنته يداه الاثيمتان

الفصل العشرون

﴿ بعد خلع صوفيا ﴾

وراقت الاحوال في موسكو وسائر البلاد بعد ذلك الانقلاب وتلك الاهوال ، وقد عظم قدر بطرس في العيون والمسامع وتمكنت هيبته في القلوب وأخلد من بقي من اعدائه الى السكينة وحُجر على اخته صوفيا في الدير ، ولم يبقَ لبطرس من مناوئ في طول البلاد وعرضها

وكان اهالي كوكوي اكثر الناس سروراً بهذه النتيجة لانهم رأوا في انتصار بطرس انتصاراً لهم وفي فوزه فوزهم بكل امنية . وقد اشتهر بينهم ميل بطرس الى حنة مونس وهيامه بها ، فانتظروا من وراء ذلك نجاحاً باهراً لمجموعهم ، واثنوا على حنة بكل شفة ولسان

وفي اليوم الاول من تشرين الاول من تلك السنة (١٦٨٩) دخل بطرس الى موسكو دخول الفاتح في موكب عظيم ، وقد خرج جميع السكان لاستقباله بأعظم مظاهر السرور والحفاوة ، واستقبله عند باب

القصر اخوه الملك يوحنا ، وقد تعانق الأخوان وبكيا ، وكان الشعب يهتف لبطرس دون يوحنا . وكان بطرس آنئذٍ في السابعة عشرة من عمره

وكان بطرس يميل من مدة طويلة الى ازياء الالمان وعاداتهم ، فلما صارت اليه مقاليد البلاد عزم على اصلاح عادات قومه وحملهم على اقتباس مدنية اوروبا الغربية ، وقد تزيّا هو بزيّ الماني ، وكان يكثر من التردّد الى كوكوي وفيها مجتمع المدنية الاوروبية ، ويجتمع برجال العلوم والفنون من سكانها ، ويدعوهم الى قصره ، ويرغب الي رجال بلاطه في معاشرتهم ومخالطتهم

غير ان رجال الدين وجمهور النبلاء لم يروا رأي القيصر في ذلك بل كانوا يرون في تغيير العادات القديمة وفي مخالطة الاجانب كل زندقة والحاد ، وقد حرّموا على الناس استبدال الجبب الطويلة وهي اللباس الروسي الوطني بالالبسة الالمانية القصيرة . وحرّموا حلق اللحى ، وكان حلق اللحية عندهم خطية مميتة لا تطهّرها كل دماء الشهداء لانها تتلف صورة الوجه الذي خلقه الله . وكانوا يلعنون كل مَن يدخن التبغ ، لانه « مشروب ابليس » غير ان القيصر كان من اكثر الناس ولعاً بالتدخين وقد اقتبس هذه العادة من سكان كوكوي واقتدى به كثيرون من رجال حاشيته واعوانه . وكانوا يحرّمون لعب الورق والشطرنج والغناء وامتزاج الرجال بالنساء وغير ذلك مما كان شائعاً عند الاجانب ومجهولاً عند الروس . ولما وُلد للقيصر ابنه البكر اليكسي (في ٢٩ شباط سنة ١٦٩٠) القى البطريرك يواكيم في الكنيسة الكبرى في موسكو عظة طويلة ملأها ذماً للاجانب وتحذيراً للشعب من معاشرتهم وطلب ان لا

يُدعى احدٌ منهم الى الوليمة الملوكية التي ستُقام في القصر بمناسبة ولادة ولي العهد ، وعلى رغم ارتياح القيصر الى الاجانب فانه لم يدعُ احداً منهم الى تلك الوليمة ارضاءً للبطريرك ، ولكنه في اليوم التالي للوليمة اجتمع بغوردون وبغيره من اصدقائه الالمان وتناولوا الطعام معاً وسار واياهم في شوارع موسكو ودعاهم الى القصر

ورأى بطرس ان الشدة في اكراه الروسيين على اقتباس المدنية الاوروبية لا تجديهِ نفعاً ، فعزم على العمل بتؤدة وحلم ، وقد اكتفى في بادئ الامر بادخال بعض الاصلاحات في بلاطه وترغيب اهل الحاشية في اقتباسها ، وكان يغتنم كل فرصة للجمع بين نبلاء الروس ورجال كوكوي في بعض الحفلات تذرعاً الى امتزاج الفريقين . وكان احياناً كثيرة لا يحتمل فظاظة بعض اشراف مملكته في تمسكهم الاعمى بتقاليدهم القديمة ، فيعدل عن الحلم الى الشدَّة ويعامل مَن كان يتعرَّض لسخطه افظع معاملة ، ويزيد بعد ذلك في حسن معاملة الاجانب وايثارهم

الفصل الحادي والعشرون

حسناء كوكوي

كان ليوحنا مونس والد حنة حبيبة الملك ولدان غير حنة ، وهما ماتريونا وكانت اكبر من حنة وقد تزوجت وخرجت من بيت ابيها ، ووليم وكان اصغر من حنة وهو فتىً صغير السن جميل الصورة . وكان الاب من مشاهير تجار الخمور في كوكوي وقد راجت تجارته رواجاً

غريباً ولا سيما بعد ما اشتهر من حب الملك لابنته وصار من كبار الاغنياء في كوكوي وموسكو . وكان حبه لابنته حنة يفوق كل حب لانها كانت سبب غناه وشهرته

وكانت حنة على جانب عظيم من الذكاء والفطنة كما كانت على جانب عظيم من الجمال واللطف . وكانت كلما جاء بطرس الى منزلها تستقبله باشدّ مظاهر الحب والهيام حتى كلف بها الملك كلفاً عظيماً ولم يعد يطيق صبراً عن زيارتها والاجتماع بها . وقد كره لاجلها زوجتهُ اشدَّ كراهةً وأخذ يفكر في كل وسيلة للانفصال عنها واتخاذ حنة بدلاً منها . غير ان حنة لم تكن طامعة في ذلك ، لانها كانت مكتفية بما نالته في عيني بطرس من الحظوة والايثار تذرُّعاً الى اجتذاب قلبه واميال الى بني قومها ورغبةً في زيادة ثروة والدها

وكانت هيلانة فاديمرخت ربيبة قسيس كوكوي صديقة حميمة لحنة ، وكانت الاثنتان تجتمعان في اكثر الايام للتسلية والسَمَر . ولما كانتا في ذات يوم مجتمعتين على عادتهما في منزل مونس قالت حنة بعد كلام — وهل تعلمين ياهيلانة اني كنت بانتظارك هذا النهار لاني في حاجة الى نصحكِ ومساعدتكِ ؟

فقالت هيلانة — قولي ما شئتِ يا عزيزتي

قالت — انتِ تعلمين يا هيلانة ان الملك بطرس قد أحبني من يوم اجتماعي به عندكِ ، وقد كنتِ انتِ واسطة التعارف بيننا ، وها هو الان هائم بي هياماً شديداً و . .

فقاطعتها هيلانة قائلة — فانتِ اذاً سعيدة بذلك

قالت — ليس لنا ان نحكم في ذلك الا متى أدركنا سن الشيخوخة.. واما الان فهل انتِ تحتقرينني ياهيلانة ؟

قالت — أحتقركِ ؟ وكيف يمكنني ذلك وقد أوعزوا اليَّ في بادئ الامر ان اقوم بنفس هذه الضحية لخير قومنا .. غير اني لم أستطع ان احب بطرس . والذي يلوح لي انكِ انتِ ايضاً لا تحبينه وانما تظهرين له المحبة والهيام تحقيقاً لِما عُهد اليكِ تحقيقه من الآمال

قالت — أصبتِ ، وهذا ما يخيفني ويؤلمني .. اني لا احب بطرس ، واما هو فانه يبذل اقصى جهده لمرضاتي وقد وعدني بان يبني لي قصراً ملوكيًّا في كوكوي

فدهشت هيلانة وقالت — ولماذا في كوكوي وليس في موسكو ؟

قالت — لانه لا يحب موسكو ويود ان يبتعد عنها ويقيم في كوكوي بين اصدقائه ومريديه من رجالنا فهو يرتاح الى معاشرة بني قومنا بقدر ما يكره همجية شعبه وسماجة تقاليد النبلاء المحيطين به . ألم تسمعي ما جرى في هذه الايام من قيام البطريرك والاشراف في وجهه ليحولوا دون دعوة رجالنا كغوردون ولفورت وغيرهما الى الوليمة التي صنعها في قصره بمناسبة ولادة ولي عهده ؟

قالت — سمعت وعلمت ان غوردون كان مستاء اشدّ استياء بسبب ذلك

قالت — نعم فقد كان لذلك اسوأ وقع في قلوب رجالنا جميعاً وشاركهم في هذا الاستياء الملك بطرس نفسه واضمر الانتقام لهم على هذه الاهانة من جميع رجال الدين والاشراف . ولهذا فانه عزم على ان

يبني قصرًا في كوكوي ليكون بعيدًا عن اولئك القوم . وقد اراد غوردون ان ينتقم ايضاً منهم فأوعز اليَّ ان اصنع وليمة للملك هنا في منزلنا وأدعو اليها جمهورًا من نبلاء الروس وجمهورًا من رجال بلدتنا

فذهلت هيلانة وقالت — وهل تظنين ان النبلاء يابون دعوتك ؟

قالت — لا بدَّ من التلبية لاني سأدعوهم بواسطة القيصر فلا يجسر احد منهم على المخالفة . وقد رسم لي غوردون الخطة التي يجب ان اتبعها وقال ان هذه الوليمة ستبعد القيصر عن قومه شوطاً كبيراً بقدر ما تقرّبه الينا

قالت — افعلي اذًا بحسب الخطة التي رسمها غوردون

قالت — وسيمثل في هذه الوليمة شاعرنا المحبوب اسكندر غوردون دور المهرّج

قالت — ولمَ ذاك ؟

قالت — ان الجنرال غوردون يريد ان يُظهر للروسيين حالة الشعوب المتمدنة في جميع اطوارها ، فلا بدَّ اذًا من اطلاعهم على احوال المهرّجين ايضاً ، ليظهر الفرق في كل حال من احوالنا واحوالهم

قالت — اظن ان لغوردون غاية اخرى يرمي اليها

قالت — وانا اظن كذلك ، فقد تأكد لي ان هذه الوليمة ستكون اشبه بمعركة شديدة الاهمية بيننا وبين الروسيين وستكون الغلبة فيها لنا بلا شك. ولذا فقد دعوتكِ وسأدعو الصديقة اليصابات لِفورت ايضاً لتساعداني في تجهيز كل ما يلزم لتكون الوليمة شائقة رائقة لا تقلُّ عن الولائم الملوكية في شيء من البهجة واسباب السرور

وبعد حديث قصير في مواضيع شتى قامت هيلانة فودعت صديقتها وانصرفت لشأنها

وفي اليوم التالي قابلت حنة الملك وأظهرت له رغبتها في ايلام الوليمة وبينت له ضرورتها ومبلغ فائدتها وتأثيرها ، فقبل بطرس الدعوة وعيّن يوماً لذلك ووعد بالحضور مع جمهور نبلاء بلاطه وهو يرجو ان يخطو بذلك خطوة الى الامام في التقريب بين شعبه والاجانب

الفصل الثاني والعشرون

﴿ المدعوّون ﴾

وفي اليوم المعين للوليمة كان منزل مونس في كوكوي مزيّناً ابهى زينة ، وقد فُرشت غرفه وسلالمه كلها بالسجاد الثمين ، ونصبت في ردهة من ردهاته الفسيحة الموائد الرخامية البديعة وصُفّفت عليها الآنية الفضية الجميلة ، وعُين لخدمة الضيوف بضع عشرات من اجمل فتيان الكوكويين وحسانها ، وجيء باحسن الطهاة لاعداد الطعام وترتيب انواع المشروبات. وقد أنفق يوحنا مونس صاحب المنزل بكل سخاء لاجل راحة المدعوّين والقيام باكرام مثواهم احسن قيام

وفي صباح ذلك النهار جاء من موسكو الى كوكوي فرقة من الحرس الملوكي ووقفت في الاماكن التي عينها لها قائدها لِفورت

ثم جاءت مركبة كبيرة تقلّ جماعة المشعوذين والمهرّجين في البلاط القيصري ، وكان اكثرهم قصار القامات مشوَّهي الخلقة غريبي الحركات والهيئات

وبعد الظهيرة اخذ المدعوون يفدون زرافات ووحداناً وهم بين راكبي العربات وممتطي صهوات الجياد وفي صحبة كل نبيل من القادمين نفرٌ من الخدم والحشم كانوا يسيرون بين يديه للاعلان عن قدومه

وكان في الغرفة المجاورة لردهة الاستقبال في المنزل جماعة الموسيقيين من فتيان وفتيات وهم كلما اقبل احد المدعوين كانوا يستقبلونه بالعزف الشجي والغناء المطرب

وكان يُرى في هذه الغرفة شاب طويل القامة جميل المنظر مرتدٍ بطيلسان مختلف الالوان هو رداء المهرّج في بلاط ملوك الالمان . وكان يُقال لهذا الشاب اسكندر غوردون وهو شاعر ظريف ومؤرّخ مشهور . وقد ارتدى في ذلك النهار بطيلسان المهرّج ليطرب الحضور بنكاته ونوادره واشعاره المجونية

وكانت ردهة الاستقبال في المنزل مزدانة باحسن انواع الزينة . وجاء المدعوون من رجال كوكوي وقد ارتدوا البسة كلها على غاية البساطة والاتقان وجلسوا في جانب من الردهة . وكانوا كلما جاء ضيف من نبلاء الروس يبشون له ويحتفون به . واما النبلاء فكانوا يدخلون الردهة بكل تيه وعظمة وهم يرفلون في الديباج الثمين دون ان يلتفتوا الى الكوكويين ودون ان يكترثوا لصاحبة الدعوة وكانوا اذا جاء احد الكوكويين وكلّم احدهم لا يلتفت هذا اليه واذا اضطرّ الى اجابته فكان يجيبه مقتضباً ثم يبصق الى الارض باشمئزاز ونفور

ولما اقبل المساء ازدان ذلك المنزل بالمصابيح والانوار الباهرة حتى اصبح كأنه شعلة من نور . وقد جاء القيصر فصدحت الموسيقى باطرب

انغامها وهبَّ جميع مَن في المنزل فاستقبلوه بغاية التجلة والترحاب وهتفوا له طويلاً

وكان القيصر مرتدياً رداءً عسكرياً على النمط الالماني . ولما دخل ردهة الاستقبال وقف قليلاً وهو يجيل نظره في الحضور وعلائم السرور بادية في وجهه . واول ما وقع بصره على حنة مونس وهي بهيئتها الملكية وثوبها الناصع البياض وقد وقفت في وسط الردهة والى جانبها هيلانة فاديمرخت واليصابات لفورت

وكانت حنة حالما رأت القيصر داخلاً قد تقدمت قليلاً لملاقاته ثم وقفت وخاطبته قائلة — اهلاً بجلالة الملك ! فقد شرَّفتَ اليوم هذا المنزل بقدومك السعيد وأبهجتَ نفوس جميع مَن فيه من الضيوف الكرام . فأذن لي يامولاي كصاحبة هذا المنزل ان احييك واشكر لجلالتك بالنيابة عن جميع الحضور هذه التعطفات الملوكية

قالت ذلك وحنت رأسها للقيصر . ثم اشارت الى فتاة صغيرة كانت واقفة وراءها تحمل بين يديها باقة جميلة من الازهار ' فدنت الفتاة من القيصر وقدمت له الباقة ' فأخذها منها مسروراً ثم رفع الفتاة بين يديه وقبَّلها في خديها . وكان اسم هذه الفتاة ماري غاملتون

وبعد ذلك تقدمت هيلانة فاديمرخت واليصابات لفورت فحيتا القيصر ووقفتا جانباً . وعادت الموسيقى فصدحت بانغامها الشجية وارتفعت اصوات الهتاف والسرور من كل جانب

ولما سكنت الحركة تقدم القيصر الى حنة مونس فقبل يدها وقال لها بضع كلمات لم يسمعها احد

وكان النبلاء عندما رأوا قيصرهم ، وهو في نظرهم الاله الارضي ، يقبّل يد فتاة قد ذُعروا وتبادلوا نظرات الاستياء الشديد واخذوا يتمتمون ويتذمرون وكانت اصواتهم آنئذٍ اشبه بدوي النحل وقد خرج من الخليَّة

وسمع القيصر هذه الاصوات ورأى علامات الاستياء في وجوه نبلائه فقطب جبينه وارسل اليهم نظرًا حادًّا ، فاخلدوا الى السكينة مذعورين مطرقين وقد تفاقمت في صدورهم كراهة حنة مونس وجميع مَن ينتمي اليها

الفصل الثالث والعشرون

الوليمة

وعاد القيصر فقبَّل يد حنة ثانيةً ثم قبل يد هيلانة فاديمرخت ويد اليصابات لفورت وقال لحنة — اني شاكر لكِ ايتها الآنسة الكريمة ما اعددتهِ لنا في هذا المساء من دواعي المسرَّة وارجو ان تسيري بنا اولاً الى مائدة الطعام والشراب اتباعاً للعادة المألوفة عندنا

قال هذا ثم تأبط ذراعها وسار بها وفي اثرهما جمهور المدعوّين الى ردهة الطعام . وما كاد القيصر يطأ عتبة الباب حتى برز لاستقباله اسكندر غوردون وهو في طيلسانه المختلف الالوان وهيئته المضحكة .

فبشَّ له القيصر وقال — مَن انت

فقال — المهرّج ان الشمس البهية تشرق باشعتها المحيية على جميع الخلائق والطبقات لا فرق عندها بين النبلاء والسوقة والاغنياء والفقراء

والعقلاء والمجانين.فأذن لي اذًا ايها القيصر العظيم وانا من طبقة المجانين هذه ان أتمتع بنصيبي من هذه الاشعة

فقال بطرس مبهوتًا – ولكن مَن انت ؟

قال – انا من يقول الحق للملوك

فقال الملك متجاهلاً – وهل يقولون غير الحق للملوك ؟ ومن يجسر على ذلك ؟

قال – لا يقول الحق الا المجانين . واما الاشراف ورجال الحاشية الملوكية فانهم يكذبون على الدوام ، وعلى الدوام يموهون كل حقيقة على الملوك ، فهم والحالة هذه اكثر كذباً ونفاقاً من سائر الناس

فضحك الملك والتفت الى النبلاء وقال – هل سمعتم ما يقوله المهرّج ؟ انه يعنيكم

وما كاد يتمّ كلامه حتى برز احد مشاهير النبلاء وكان شيخًا طاعنًا في السن ، فانحنى للملك وقال – ايها القيصر العظيم ! انت تعلم ان جدي له الملكوت السماوي والراحة الابدية كان من اعضاء اللجنة العليا التي اختارت جدّك ميخائيل رومانوف للمُلك ، فلا ترفض اذًا يا مولاي ان تسمع كلمةً اريد ان اقولها لجلالتك

فقطب الملك حاجبيه وقال – قل ما بدا لك

غير ان اسكندر غوردون قد اخذ في تلك اللحظة طنبوره وجعل يضرب عليه ويرقص وينشد اشعارًا مجونية زادت نار الغضب في صدر النبيل اشتعالاً ، فقال بصوت أبحّ – ان حياتي في يديك ايها الملك ولك ملء الحرية في اعدامي او حقن دمي ، ولكنني لا اريد البقاء هنا ، اذ

لا يليق بي ان ادنّس شيبتي وشرفي بالبقاء في مثل هذا المنزل وسماع مثل هذه الاقوال الشائنة

فقدحت عينا الملك شرارًا وقال – اخرج اذا احببتَ ذلك ، فانا لا أكرهك ولا أكره غيرك على البقاء هنا ، ولكنني سأناقشك الحساب على كل كلمة قلتها . اغرب من امامي

قال بطرس ذلك وسار فجلس الى رأس المائدة وجلس الضيوف الى جانبيه الكوكوّيون الى جهة والنبلاء الى جهة اخرى . وما كاد يمدُّ يده ليتناول كأساً من الشراب حتى وقف احد النبلاء وصاح بأعلى صوته – حنانيك ايها الملك ! ان مقامي ارفع من ان اجلس بعد هذا النبيل (واشار الى جاره على المائدة) لان اسرتي اعرق من اسرته شرفاً ونبلاً

فصاح الملك وهو يرتجف من شدة الغضب – اخرس ايها المجنون وابقِ سخافاتك الى غير هذا المكان !

وكان ان اسكندر غوردون لما سمع كلمة مجنون قد اسرع فانتصب امام الملك وقال – هاءنذا يا سيدي ! فماذا تريد ؟

فابتسم بطرس وقال – لستَ انت المجنون بل ذاك – واشار الى النبيل الذي لبث واقفاً في مكانه وقد أبى الجلوس

فقال المهرّج – لقد أهنتني يا سيدي لانك دعوتَ غيري مجنوناً ، وانا قد احتكرتُ هذا اللقب لنفسي ولستُ اريد ان يُدعى به سواي . واما هذا النبيل فهو من رجال حاشيتك ، الا ترى لحيته اشبه بلحية التيس الكبير ، اذاً فهو ليس بمجنون ، ولا انا ارضى به اخاً لي

وكان النبيل لا يزال واقفاً فقال له الملك – والان ماذا تريد ؟

قال – اريد ان تأذن لي بالخروج من هذا المكان ، لاني لن اجلس بعد مَن هو دوني في الرتبة والمقام

فنادى الملك رئيس حرسه وقال – خذ هذا الرجل (واشار الى النبيل) الى السجن وعلمه الطاعة والاذعان لاوامري

وكانت حنة مونس قد سمعت الحديث فاستاءت لِما جرى واسرعت فقالت لبطرس – اناشدك الله ايها الملك ان تعفو عنه ولا تعامله بهذه القسوة

فقال – وانا لا اريد ان اعكّر صفاء هذا المساء ، ولكن ما العمل اذا كانت هذه اخلاقهم (يريد اخلاق النبلاء) وهذه درجة آدابهم .. غير اني قد آليتُ على نفسي ان أؤدّبهم بعصاً من حديد ، فاما ان اقتلع من نفوسهم جرثومة هذا الجهل المطبق او ان استأصل شأفتهم واريح البلاد من طغيانهم كما أرحتُها من سواهم

ثم ضرب بيده على المائدة ضربة عنيفة اهتزّت لها الآنية التي كانت عليها واريق كثير من الشراب وقال – اين اسكندر ؟

فجاء فتىً جميل الصورة لطيف الهيئة ومثل بين يدي الملك قائلاً – هاءنذا يامولاي

فأخذ بطرس كاساً مما امامه من الشراب واحتساها جرعة واحدة وقال للنبلاء أتعرفون مَن هذا الفتى ؟ انه ابن حوذي وقد كان في صغره يبيع الحلوى في اسواق موسكو وهو الان احد الجنود في جيشي الصغير . فهذا الفتى وهو كما رأيتم من أحقر الاسر الخاملة ولكني سأرقيه وارفع مقامه وأجعله كواحد منكم . وغايتي من ذلك ان تعلموا ان الملك حرٌّ في اي عمل اراد وان تعلموا ايضاً ان التفاضل هو في الخدمة وليس

في التحذُّر من الآباء والاجداد

ولما قال ذلك التفت الى الفتى وقال – ترى هناك بين اولئك النبلاء كرسياً فارغاً هو كرسي حضرة النبيل الذي لم يشأ ان يشرّفنا ببقائه فاذهب واجلس انت مكانه وليكن اسمك مذ الان اسكندر منشيكوف (١) (نسبة الى الاصغر)

ولما قال ذلك اجال نظرًا حادًا في الاشراف وقال لهم – وليكن ما حدث الان درساً مفيدًا لكم. فمَن تجرَّأ ان يخاطبني في هذا المساء بشيءٍ من تلك السخافات فلا ابطئ ان اضرب عنقه بيدي

الفصل الرابع والعشرون

﴿ ما تحت الرماد ﴾

وكان من عادة بطرس انه اذا غضب كثيرًا لا يعود في امكانه ان يقف عند حد . ولكنه تجلَّد هذه المرة واخذ يكثر من الشرب بغية ان ينسى غضبه . ثم امر باحضار مهرّجيه فجيء بهم وكانوا قد اكلوا كثيرًا وشربوا كثيرًا حتى ذبلت عيونهم وران النعاس على اجفانهم فأخذوا يترنحون في مشيهم ويجرون من الحركات ما ظهر سمجاً وثقيلاً في عيون الكوكويين . ولحظ بطرس ذلك فتنهد وقال في نفسه : اننا احطُّ من غيرنا حتى في هذه الحالات المجونية . فاين ظرف المهرّج الالماني

(١) واخذ اسكندر منشيكوف مذ ذاك يرتقي في الرتب والوظائف حتى أصبح اعظم رجال المملكة واقرب الناس الى الملك

وخفة روحه من سماجة هؤلاء وبلادتهم

ولما لم يعد يستطيع احتمال ذلك امر بطرد مهرّجيه ثم نادى اسكندر غوردون واعتذر اليه وطلب ان يُسمعه شيئاً من نكاته . فوقف هذا في وسط الردهة وجعل يضرب على طنبوره احسن الانغام وينشد ارقّ الاشعار ثم ترك الطنبور جانباً واخذ يسرد من النكات الرائقة ما كان له احسن وقع في نفوس الحضور . فطابت نفس بطرس وجعل يضحك ويقهقه مسروراً

ولكنه لم يلبث ان عاد الى غيظه واخذ الشرر يتطاير من عينيه . وذلك انه رأى اكثر النبلاء جالسين الى الموائد مطرقين لايمدون ايديهم الى الطعام والشراب . فأدرك انهم لم يأكلوا ولم يشربوا شيئاً وقد كبر ذلك عليه وتأكد له انهم انما فعلوا ذلك احتقاراً لاصحاب المنزل وعصياناً لاوامره

وانه لفي مثل ذلك واذا بضجة قد ارتفعت في جهة النبلاء . وذلك ان اثنين منهم تذكرا وهما جالسان الى المائدة ما كان بينهما من الخصومة القديمة واخذا الان يتعاتبان ثم انتقلا من المعاتبة الى المشاحّة ومنها الى المشاتمة ثم الى الملاكمة والمضاربة ، وبادر النبلاء الآخرون لاصلاح ما بينهما ولكنهم لم يلبثوا ان تداخلوا في الخصام وانقسموا فرقتين ودار الضرب بينهما حتى قُلبت الموائد وارتفع الصياح من كل جانب واستولى الذعر على السيدات

وكان بطرس قد ثار ثائره وهاج هائجه فاستلّ سيفاً وهجم به على المتخاصمين واخذ يضرب به ذات اليمين وذات الشمال حتى انفصل